روايات مصرية للجيب

٦

فارس الأندلس
الرمح المكسور

د. نبيل فاروق

من بين أوراق التاريخ جاء ..

من قلب الحضارة والأمل ظهر ..

من أجل العدالة والحق كان ..

رمز الماضى والحاضر والمستقبل ..

الفارس ..

فارس الأندلس ..

د. نبيل فاروق

١ ـ البرّ والبحر ..

رفعت الملكة (إيزابيلا) . سيِّدة (قشتالة) و (ليون) رأسها فى اعتداد ، وهى تدلف إلى البهو الملكى فى (قرطبة) ، وتعلّق بصرها بالملك (فرناندو) ، الذى انهمك فى تفكير عميق ، فوق عرشه الضخم ، وهى تقطع البهو الفسيح فى خطوات رصينة هادئة ، وخلفها وصيفاتها وحرّاسها ، حتى بلغت منصة العرش ، فصعدت فى شموخ لتجلس على عرشها المجاور لعرشه ، دون أن يرفع هو عينيه إليها لحظة واحدة ، وكأنما ابتلعه التفكير تمامًا ، فصمتت فى كبرياء ، وأضفى صمتها رهبة عجيبة على البهو ، الذى خمدت الأصوات فيه حتى صار أزيز البعوضة مسموعًا ..

وطال الصمت ..

طال مع استغراقة (فرناندو) العميقة ، والملكة تتطلّع إليه فى شىء من الترقّب والغضب ، حتى أدار عينيه إليها فى بطء ، وقال :

ـ مرحبًا بملكة (قشتالة) و (ليون) .

شمخت (إيزابيلا) بأنفها ، وقالت :

ـ عجبًا !.. هل انتبه الملك أخيرًا إلى أن ...

قاطعها بإشارة من يده ، ثم التفت إلى وصيفاتها وحرّاسها ، وقال بلهجة صارمة آمرة :

ـ انصرفوا .

أطاعه رجال الحراسة على الفور ، فى حين ترددت الوصيفات لحظة ، قبل أن تلحقن بالحرّاس ، فى حين احتقن وجه الملكة فى غضب ، وهى تقول :

ـ كيف تجرؤ على ... ؟

قاطعها قبل أن تتم عبارتها ، وهو يقول فى حدة :

ـ لا وقت لهذه السخافات .. أخرجى من غلافك المتغطرس هذا ، يا ملكة (قشتالة) و (ليـون) ، وعيشى واقع شعبك .. إننا نحارب أيتها الملكة .. هل تفهمين معنى كلمة (حرب) ؟.. إنها معارك شرسة عنيفة ، يخوضها خيرة شباب ورجال الشعوب ، وتراق فيها الدماء أنهارًا ، لا تفوقها وفرة سوى دموع الأرامل واليتامى والثكالى ، الذين سينشبون أظفارهم فى عنقك الملكى ، وينتزعون روحك من جسدك بلا تردّد ، لو علموا أنك تركت الأزواج والأبناء والآباء يلقون مصرعهم ، لمجرد أن كبرياءك أبى أن تفتحى أذنيك لحظات معدودة ..

شحب وجه (إيزابيلا) ، واتسعت عيناها فى دهشة ، وهى تتطلع إليه ، وقد أذهلها ذلك الهجوم المباغت ، الذى

أصاب مشاعرها فى الصميم ، وحاولت أن تتماسك فى كبرياء ، إلا أن شفتيها ارتجفتا على الرغم منها ، وهى تقول :

ـ ما الذى يعنيه هذا ؟

استعاد هدوءه بغتة ، وكأن ثورته السابقة كانت مفتعلة ومقصودة ، وهو يقول :

ـ هل تعرفين (فرانشسكو) ؟

أجابت فى مزيج من الدهشة والحيرة :

ـ (فرانشسكو ديجو) ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ إنه هو .. لقد أرسل من يبلغنى بأن لديه خطة جديدة ، لمباغتة العرب ، والانقضاض على (غرناطة) .

التقطت نفسًا عميقًا ، لتسيطر على مشاعرها ، واستعادت كبرياء الملكة ، وهى تقول :

ـ وما خطته الجديدة هذه ؟

رفع الملك كأسه ، وهزّ رأسه فى بطء ، وهو يقول :

ـ لم أستمع إليها بعد .. رأيت أنه من الأفضل أن يعرضها علينا معًا .

استحسنت موقفه هذا ، وإن أخفت شعورها فى أعماقها ، وهى تقول فى برود :

ـ لا بأس .. أين هو ؟

وضع (فرناندو) كأسه ، وصفق بكفيه ، فظهر خادم زنجى ، أشار إليه الملك ، قائلًا :

- دع (فرانشسكو) يأتى .

انحنى الخادم فى طاعة ، وغاب لحظات ، ثم عاد مصطحبًا رجلًا قوى البنية ، صارم الملامح ، يرتدى زيًّا عسكريًا ، ويحمل خوذته تحت أبطه اليسرى ، ولفافة كبيرة من الورق بيده اليمنى ، وانحنى الرجل أمام الملك والملكة ، قائلًا :

- مولاى .. مولاتى .

أشار إليه (فرناندو) ، قائلًا :

- اعرض خطتك يا (فرانشسكو) .

تردد (فرانشسكو) لحظة ، قبل أن يقول :

- هل يتنازل مولاى ، وتتنازل مولاتى ، ويهبطان لمطالعة خريطتى .

نهض (فرناندو) ، ومدَّ يده للملكة (إيزابيلا) ، التى وضعت راحتها على يده ، ونهضت بكبرياء الملكة ، وهبطت إلى جواره سلالم العرش ، ثم اتجها مع (فرانشسكو) إلى مائدة كبيرة ، فى ركن القاعة ، فرد عليها هذا الأخير خريطته الكبيرة ، وقال :

- خطتى تعتمد على نشر بعض القوات الرمزية ، على

طول الحدود ، بيننا وبين مملكة (غرناطة) ، مع القيام ببعض المناوشات المحدودة ، فى نقطة أو نقطتين ، و ...

قاطعته الملكة فى توتر :

- وما الجديد فى هذا ؟.. إنها مناورة واضحة ، تجذب انتباههم إلى نقطة ما ، ثم تضرب فى نقطة أخرى .. سينتبهون إلى خدعتك بسرعة ، ويوزعون قواتهم على طول الحدود ، كما يحدث فى كل مرة .

ابتسم (فرانشسكو) ، وهو يقول :

- لو فعلوا هذا ، تكون خطتى قد نجحت يا مولاتى .

انعقد حاجبا (فرناندو) فى اهتمام ، فى حين سألت الملكة فى حيرة :

- كيف ؟!

أشار بيده إلى الخريطة ، وهو يجيب :

- لأننا لن نهاجم قط عند الحدود ، بل سيأتى هجومنا من هنا .

ارتفع حاجباها ، وهى تتطلع إلى النقطة التى أشار إليها ، هاتفة :

- من البحر ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وقال :

- نعم يا مولاتى .. فى الوقت الذى ينشغل فيه برصد الحدود ، والاستعداد لمواجهتنا عندها ، سيقلع أسطولنا

من (قرطاجنة) ، ويهبط الجزء الأكبر من جيشنا على سواحلهم ، وننقض عليهم من خلف ظهورهم ، وعندما ينتبهون إلى هذا ، ويستديرون لمواجهتنا ، ينقضّ عليهم الجزء المتبقّى من جيشنا ، عبر الحدود ، و ...

أكمل الملك فى انفعال ، وعيناه تبرقان فى لهفة :

ـ ويسقطون بين المطرقة والسندان .. عظيم يا (فرانشسكو) .. عظيم .

ثم ربّت على كتفه فى حرارة ، مستطردًا :

ـ لو نجحت خطتك هذه ، سأمنحك على الفور لقب (دون) .. ستصبح (دون فرانشسكو) .

أدار اللقب عقل (فرانشسكو) ، فهتف فى حماس :

ـ ستنجح يا مولاى .. ستنجح ، وستصبح هى أوّل الطريق إلى قلب الهدف .. إلى (غرناطة) ..

وارتسمت ابتسامة ظافرة على الوجوه ..

كل الوجوه ..

* * *

لم يكد أوّل خيط من أشعة الشمس يسقط على وجه (رفيق) ، حتى أطلق صهيلًا خافتًا ، وضرب الأرض بقائمته فى رفق ، ولم تمض ثوان على فعلته هذه ، حتى أطلّ (فارس) بوجهه من خيمته ، وهو يفرك عينيه ، ويبتسم قائلًا :

ـ صباح الخير يا (رفيق) .. ألا تتأخر فى الاستيقاظ مرة واحدة ؟!

أطلق (رفيق) صهيلًا آخر ، وكأنما يجيب سؤال سيّده ، فى حين اتجه (فارس) إلى البئر ، وراح يغتسل ، ويؤدى طقوس الصباح ، واستغرق دقائق فى صلاة خاشعة ، ثم التفت إلى (رفيق) ، قائلًا :

ـ هيا نؤدى عملنا يا صديقى .

واختطف قوسه ونشابه ، وهو يثب على متن جواده ، الذى رفع قائمتيه ، وأطلق صهيلًا قويًا هذه المرة ، ثم انطلق يعدو نحو الدغل القريب ، وعلى متنه (فارس) ، الذى راحت عيناه تجوبان المكان فى سرعة ، بحثًا عن صيد مناسب ، حتى وقع بصره على أرنب برى ، فأطلق نحوه سهمه ، وأصابه إصابة مباشرة ، ولم تمض دقائق أخرى ، حتى كان قد عاد به إلى المعسكر ، حيث استيقظ الشيخ و (مهاب) ، وجلسا ينتظران عودته ، فابتسم وهو يقول :

ـ صباح الخير يا عماه .. صباح الخير يا (مهاب) .. سنتناول أرنبًا مشويًا كالمعتاد .

غمغم الشيخ :

ـ سأكتفى ببعض الفاكهة .



وقع بصره على أرنب برى ، فاطلق نحوه سهمه ، وأصابه إصابة مباشرة ..

ضحك (مهاب) وهو يقول :

ـ فى هذه الحالة ، أيمكننى أن ألتهم نصيبك ؟

هتف (فارس) مداعبًا :

ـ يا لك من نهم !

صاح (مهاب) :

ـ نهم ؟!.. من يجرؤ على قول هذا ؟.. ستدفع الثمن يا (فارس) .

واستلّ سيفه ، ووثب نحو (فارس) ، الذى تراجع فى مهارة ، وهو يقول :

ـ إذن فأنت تباغتنى !

ثم قفز فى خفة ، متفاديًا سيف (مهاب) ، والتقط سيفه من أمام خيمته ، مستطردًا :

ـ خابت خطتك إذن .

تلاقى سيفاهما ، وتعالى صليلهما ، وهما يتحاوران ويتناوران ، والشيخ يراقبهما بابتسامة هادئة ، متمتمًا فى خفوت شديد :

ـ أحسنت يا (فارس) .. أحسنت يا ولدى .

كان (مهاب) مقاتلًا صنديدًا ، وخبيرًا لا يشقّ له غبار ، فى المبارزة والنزال ، إلا أن (فارس) كان أكثر شبابًا ، وأخفّ حركة ، مما منحه نقطة تفوّق ، جعلت (مهاب) يهتف فجأة :

ـ حسن .. سنكتفى بهذا .. الجوع يقتلنى .
ضحك (فارس) وقال :
ـ فليكن .. سأعد الطعام على الفور .
ثم التفت إلى الشيخ ، مستطردًا :
ـ أى نوع من الفاكهة ترغب فى تناوله يا سيدى ؟..
ولكن الشيخ لم يجب ..
بل لقد بدا وكأنه حتى لم يسمع ..
كان يتطلع بعيدًا ، إلى قمة التل ، وكأن شيئًا ما يجذب بصره فى شدة ..
وكان من الطبيعى أن يلتفت (فارس) و (مهاب) إلى حيث ينظر الشيخ ..
وانعقدت حواجبهما فى اهتمام قلق حذر ، وهما يتطلعان إلى ذلك الفارس ، الذى يعدو بجواده نحو المعسكر ، على نحو يشف عن العجلة والتوتر ..
ولم تكد ملامح ذلك القادم تتضح أكثر ، مع اقترابه من المعسكر ، حتى تضاعفت دهشتهما ، وغمغم الشيخ فى مزيج من الدهشة والحيرة والقلق :
ـ مولاى الملك !
توقف الجواد فى قلب المعسكر ، وأزاح الملك ابن (الأحمر) غطاء عباءته عن رأسه ، وهو يقول :

ـ صباح الخير أيها الوزير .. صباح الخير يا (فارس) .. كيف حالك يا قائد الفرسان ؟
ردوا تحيته ، و (مهاب) يسرع ليمسك جواده ، ويعاونه على الهبوط ، فى حين بقى (فارس) صامتًا جامدًا ، وهو يتابع الملك بعينيه ، ونهض الشيخ يستقبله قائلًا :
ـ مرحبًا بك يا مولاى ، فى معسكرنا المتواضع .. قلبى يحدثنى أنه أمر جلل ، ذلك الذى دفعك لزيارتنا ، بدلًا من أن تدعونا لزيارتك .
أجابه الملك ، وهو يتخذ مجلسه إلى جواره :
ـ هذا أكثر ضمانًا للسرية أيها الوزير ، وهو ما نحتاج إليه كثيرًا هذه المرة .
انعقد حاجبا (فارس) ، وهو يتساءل عن تلك المهمة ، التى تتطلب سرية بالغة ، ولكن الملك لم يمهله الكثير من الوقت للتساؤل ، وإنما أشار إليه ، قائلًا :
ـ تعال يا (فارس) .. وأنت يا (مهاب) .. أحتاج إلى كل اهتمامكما وانتباهكما .
اتخذ (فارس) و (مهاب) مجلسهما إلى جوار الملك والشيخ ، وعندئذ أطلق الملك زفرة حارة طويلة ، بدت وكأنها تنبع من بركان ثائر فى أعماقه ، قبل أن يقول :
ـ القشتاليون يحشدون جيوشهم عند الحدود .

سرى توتر عنيف في المكان ، فور انتهاء الملك من عبارته ، وهتف (مهاب) في انفعال :

- يبدو أن الساعة الموعودة قد حانت .

هزَّ الملك رأسه ، وقال :

- هذا ما يبدو ظاهريًّا .

سأله الشيخ في اهتمام :

- ما الذي يعنيه مولاي ، باستخدامه هذه العبارة ؟

لوَّح الملك بكفه ، وقال :

- لو نظرنا إلى الأمر على نحو مباشر بسيط ، لبدا لنا أن القشتاليين يستعدون بالفعل لشن الهجوم الكبير ، إذ أن جنودهم يبدون في كل نقطة ، على طول الحدود ، ولكن ..

قال (فارس) في لهفة :

- ولكن ماذا ؟!

التفت إليه الشيخ بنظرة عتاب ، لأنه لم يستطع كتمان لهفته ، فقاطع الملك ، متجاوزًا حدود اللياقة ، وخفض (فارس) عينيه في حياء ، في حين تابع الملك ، وكأنما لم ينتبه لما حدث :

- ولكن النظرة المتأنية للأمر ، تجعل من الواضح أنهم يدبرون غير ما يوحون به ..

قال (مهاب) :

- بالتأكيد ، فلو أنهم يخططون لهجوم حقيقي ، لحشدوا قواتهم في نقطتين ، أو ثلاث نقاط محدودة ؛ لضمان التفوق والقوة ، أما تشتيت قواتهم على طول الحدود ، فيعني أنها محاولة للتمويه فحسب .

أشار إليه الملك ، قائلًا :

- بالضبط .. إنك لم تفقد خبرتك بعد يا (مهاب) .

هزَّ (مهاب) كتفيه ، وقال :

- لقد قضيت أكثر من نصف عمري في هذا العمل يا مولاي .

أومأ الملك برأسه متفهمًا ، ثم قال :

- المهم أننا نجهل هدفهم الحقيقي ، وهذا يصيبنا بالكثير من الحيرة والارتباك ، فلا يمكننا تشتيت جيشنا ، لمراقبة كل نقاط الهجوم المحتملة ، ولا يمكننا - في الوقت ذاته - الوقوف ساكنين ، في انتظار هجوم مرتقب ؛ لذا فقد رأينا أن أفضل ما نفعله هو أن نسعى لكشف خطتهم ، قبل بدء الهجوم .

قال الشيخ ، وهو يختلس النظر إلى (فارس) :

- إذن فأنت تحتاج إلى جاسوس ، يمكنه الدخول إلى قلب العدو ، والحصول على المعلومات اللازمة ، والعودة إلى هنا سالمًا ، ليبلغنا كل ما لديه .

قال الملك :

ـ إنها ليست بالمهمة السهلة أيها الوزير ، فالشخص الذى نحتاج إليه ، سيواجه صعوبات بالغة ، فلا شك فى أن القشتاليين سيكونون شديدى الحذر والتوتر ، لو أنهم يخططون لأمر ما بالفعل ، وهذا يعنى أننا لن نحتاج لمجرد جاسوس أو جندى عادى .. بل سنحتاج إلى (فارس) .

والتفت إلى (فارس) ، مستطردًا فى حزم :

ـ فارس الأندلس .

اعتدل (فارس) عند سماع الكلمة ، وانعقد حاجباه فى حزم واضح ، فى حين أطلق (رفيق) صهيلًا قويًا ، وكأنما فهم ما يعنيه الملك ، وغمغم الشيخ ، وهو يربت على كتف (فارس) :

ـ على بركة الله .

وكان هذا يعنى أنه على (فارس) أن يستعد للانطلاق إلى (قرطبة) ..

إلى قلب العدو .

* * *

٢ ـ الرحلة ..

« إنهم ينتشرون على طول الحدود بالفعل .. » .

نطق (فارس) هذه العبارة فى صوت خافت ، وهو يراقب الجنود القشتاليين ، الذين أقاموا معسكرًا صغيرًا ، على مسافة عدة أمتار من حدود مملكة (غرناطة) ، فأجابه (مهاب) ، وهو يختفى معه ، خلف جذع شجرة ضخمة :

ـ ولكن بكثافة منخفضة ، إلى حد يثير الشك .

قال (فارس) :

ـ من قال : إنها منخفضة ؟!.. لقد عددت ستة عشر منهم حتى الآن ، يلتفون حول النيران ، فى منتصف المعسكر ، وهناك ثلاث خيام أخرى ، لسنا ندرى كم يقيمون فيها .

أجابه (مهاب) فى ثقة :

ـ لا أحد .

التفت إليه (فارس) فى دهشة ، قائلًا :

ـ ماذا تعنى ؟!.. هناك من يقيم حتمًا فى هذه الخيام .. لماذا نصبوها إذن ؟

ابتسم (مهاب) ، وربت على كتفه ، قائلًا :

ـ لإيهامك بوجود المزيد منهم يا صديقى .. هذه قواعد

اللعبة .. ثلاث خيام فارغة ، تضاف إلى المعسكر ، فتوحى بوجود عدد أكبر من الجنود .

وألقى نظرة أخرى سريعة على القشتاليين ، قبل أن يضيف :

ـ هذا لو أن الذين أمامنا كلهم جنود .

تطلع إليه (فارس) لحظات فى صمت ، ثم قال :

ـ هل تميل إلى الغموض الليلة ؟

ضحك (مهاب) ، وقال :

ـ كلا .. ولكن راقب هؤلاء الفرسان الستة عشر لفترة من الوقت ، وستكتشف على الفور أن بينهم خمسة من الجنود فحسب ، أما الأحد عشر الآخرين ، فلم يمسك أحدهم قوسًا أو نشابًا منذ طفولته .

قال (فارس) ، وقد تضاعفت دهشته :

ـ لماذا يقفون عند الحدود إذن ؟

أجاب (مهاب) :

ـ للإيحاء بأن جيشهم يستعد لشن هجوم عند الحدود .. إنهم يلعبون لعبة متقنة يا فتى ، فى محاولة لإخفاء أمر آخر ، وهذا يضاعف قلقى .

انعقد حاجبا (فارس) ، وقبضت أصابعه بلا وعى على مقبض سيفه ، وهو يقول :

ـ (مهاب) .. حديثك هذا بالغ الخطورة .. هل يمكنك إثباته ؟

هزَّ (مهاب) كتفيه فى هدوء ، وقال :

ـ بالطبع .. هناك وسيلة بسيطة للغاية ، لإثبات هذا الأمر .

ثم وثب على متن جواده ، قبل أن يستطرد فى حزم :

ـ أن نواجه هؤلاء الفرسان .

كاد (فارس) يهتف :

ـ إنها وسيلة مجنونة .

إلا أن فكرة قتال القشتاليين بدت له طريفة ومنشطة ، فوثب على ظهر (رفيق) بدوره ، وهو يستل سيفه ، قائلًا :

ـ فليكن .. هيا بنا .

وانطلق الإثنان نحو المعسكر القشتالى الصغير ، وما أن بلغاه ، حتى أطلقا صرخة قتالية مخيفة ، وانقضا على الجنود الستة عشر ..

وفى حركة سريعة ، هبَّ ستة من الجنود لملاقاتهم ، واستلوا سيوفهم للقتال ، فى حين صرخ العشرة الباقون فى هلع ، وانطلقوا يعدون مبتعدين ، فوثب (مهاب) عن جواده ، وهو يهتف :

ـ أرأيت ؟.. كنت على حق .

قالها ، وسيفه يهوى على سيوف القشتاليين ، ويلتحم معهم فى قتال شرس ، فلحق به (فارس) ، واشتبك فى النزال بدوره ، وهو يقول :

- بل كنت مخطئًا يا صديقى .

لم يجب (مهاب) ، وهو يسقط أحد القشتاليين ، ثم يلحق به زميله ، فى حين خمدت الأصوات فى المكان ، إلا من صليل السيوف ، وآهة ألم ، انطلقت من حلق القشتالى الثانى ، الذى أسقطه (فارس) ..

ومع سقوط القشتالى الخامس ، هتف (مهاب) :

- لماذا تقول إننى أخطأت ؟

ابتسم (فارس) ، وهو يُسقط القشتالى السادس ، قائلًا :

- لأنك افترضت وجود خمسة فقط من الفرسان ، ولكننا واجهنا ستة منهم !

انعقد حاجبا (مهاب) ، وهو يقول :

- إنه خطأ عددى فحسب .

ثم اتجه إلى أحد أولئك الذين حاولوا الفرار ، وقد انكمش فى رعب ، بزى فرسان (قشتالة) الذى يرتديه ، وانتفض جسده كله ، عندما سأله (مهاب) فى صرامة :

- لماذا أتيت إلى هنا ؟

ارتجف صوت الرجل فى هلع ، وهو يجيب :

- لم تكن هذه رغبتى أيها السيِّد العربى .. أقسم لك .. أنا ورفاقى مجرَّد فلاحين بسطاء ، لا شأن لنا بالنزال والقتال ، ولكنهم جمعونا من حقولنا ، وألبسونا ثياب الفرسان ، وألقوا بنا عند الحدود .. أقسم لك أنها الحقيقة .

أعاد (مهاب) سيفه إلى غمده ، وهو يقول :

- أنا أصدِّقك يا رجل .

ثم التفت إلى (فارس) ، قائلًا :

- هل سمعت ما قاله ؟

أجابه (فارس) فى حزم :

- نعم يا (مهاب) .

ثم عاد يثب على متن جواده ، مستطردًا :

- وهذا يعنى أنه علينا ألا نضيع لحظة واحدة .

قفز (مهاب) على ظهر جواده ، قائلًا :

- أنت على حق .

وانطلق الفارسان العربيان يواصلان رحلتهما ، عبر الأرض الممتدَّة أمامهما بلا نهاية ..

أرض العدو ..

★ ★ ★

أشرقت الشمس على (قرطاجنة) ، وانتشرت خيوطها الذهبية فوق سطح البحر ، وارتسمت ابتسامة واثقة كبيرة ، على شفتى (فرانشسكو) ، وهو يتأمل سفنه العشر ، التى احتشدت بالجنود والذخائر ، ثم رفع يده ، هاتفًا فى حزم مزهو :

- أفردوا الأشرعة ، واستعدوا للرحيل .

ارتفعت الأشرعة البيضاء فى آن واحد ، وبدا المشهد مهيبًا ، وسفن الأسطول العشر تستعد للإقلاع ، وانتفخت أوداج (فرانشسكو) ، وهو يحلم باللقب ، الذى وعده به الملك (فرناندو) ، بعد عودته ظافرًا ، وطارت به الأحلام بعيدًا ، و ...

« سيدى (فرانشسكو) .. تابعك يعدو مقتربًا .. » .

صك النداء أذنى (فرانشسكو) ، فاستدار فى حركة حادة ، يحدق فى القادم ، وانعقد حاجباه ، وهو يراقب تابعه ، الذى يأتى عدوًا ، على متن جواد قوى ، وتمتم :

- ما الذى جعله يهرع إلى هنا هكذا ؟.. لا ريب أنها رسالة عاجلة للغاية .

انقبض قلبه ، وراح يخفق فى عنف ، وقد توجس خيفة ، حتى وصل تابعه إلى السفينة ، ولهث وهو يسلمه ورقة صغيرة مطوية ، ويقول :

- الحمام الزاجل حمل إليك رسالة عاجلة ، من الحدود يا سيدى .

اختطف (فرانشسكو) الرسالة فى لهفة متوترة ، وفضها فى سرعة ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يقرأ ما بها ، ثم اعتصرها فى قبضته ، وهو يقول فى حنق :

- اللعنة !.. أصاب الملك (فرناندو) فى استنتاجه .

سأله تابعه فى فضول :

- ماذا حدث يا مولاى ؟!

ألقى (فرانشسكو) الورقة بكل قوته فى البحر ، وهو يجيب :

- لقد شك العرب فى الأمر ، وأرسلوا أحد فرسانهم لتقصى الأمر .. واختاروا فارسهم الأبيض بالتحديد ، ولقد اقتحم الحدود منذ ساعات ، وعبرها مع رفيق له .

قال التابع :

- وهل يهدد هذا خطتنا يا سيدى ؟!.. صحيح أنهما عبرا الحدود ، ولكنهما يجهلان ما يبحثان عنه ، وأين يعثران عليه .. أراهنك أنهما سيتجهان مباشرة إلى (قرطبة) ، ولن يخطر ببالهما قط ، أن يأتيا إلى هنا .. وعندما يكتشفان أنهما على خطإ ، ستكون أنت قد وصلت إلى أرضهم ، وبدأت قتالك المباغت لهم .

ظلّ (فرانشسكو) يعقد حاجبيه طويلًا ، وهو يفكّر فيما يقوله تابعه ، ثم هزّ رأسه فى قوة ، قائلًا :

- لا .. لن أخاطر بترك شىء للظروف .

والتفت إلى أحد الجنود مستطردًا :

- قل لـ (كريستوبال) : إننى أنتظره فى حجرتى .

ثم أشار إلى تابعه ، قائلًا فى حزم :

- اذهب أنت .

أطاعه التابع على الفور ، وغادر السفينة عائدًا إلى منزل (فرانشسكو) ، الذى اتجه مباشرة إلى حجرته ، ولم تمض لحظات حتى طرق (كريستوبال) بابها ، ودلف إليها بقامته الضخمة ، وعضلاته المفتولة ، ووجهه الصارم ، وهو يقول :

- هل طلبت رؤيتى يا سيّدى ؟

أجابه (فرانشسكو) على الفور :

- نعم يا (كريستوبال) .. إنك لن ترحل معنا .

رفع الجندى القشتالى الضخم حاجبيه فى دهشة ، فاستطرد (فرانشسكو) فى سرعة :

- ستبقى ؛ لأننى سأسند إليك ، مع فرقة من الرجال ، مهمة بالغة الخطورة ، قد يتوقّف عليها مصير حملتنا كلها .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى حزم :

- بل مصير (الأندلس) كلها ..

وهنا انخفض حاجبا (كريستوبال) ، واعتدل فى وقفته ..

وراح يستمع فى اهتمام ..

★ ★ ★

لهث (مهاب) فى شدة ، وهو يمسح عرقه الغزير بكفه ، ويشير إلى (فارس) ، قائلًا :

- مهلًا يا فتى .. لم أعد أحتمل .. إننا نعدو بجوادينا منذ غروب شمس أمس .

جذب (فارس) معرفة (رفيق) ، الذى أطلق صهيلًا خافتًا ، ثم توقّف مرهقًا ، ومسح (فارس) عرقه بدوره ، وهو يقول :

- لا بأس .. الجوادان أيضًا يحتاجان إلى الماء والغذاء والراحة .

مسح (مهاب) عرقه مرة أخرى ، وأدار عينيه فيما حوله ، ثم أشار إلى خان بعيد ، وقال :

- يمكننا أن نحصل على كل ما نحتاجه هناك .

انطلقا مرة أخرى بجواديهما نحو الخان ، و (فارس) يقول :

- أليس من الخطر أن نجلس فى خان قشتالى ؟

قال (مهاب) :

ـ الخطر بدأ معنا ، منذ عبرنا خط الحدود يا فتى ، ثم أننا نجيد اللغة القشتالية ، وما زال هناك العديد من العرب نصف القشتاليين ، يعيشون فى (قرطبة) .

اكتفى (فارس) بهذا الجواب ، وواصل عدوه إلى جوار (مهاب) ، حتى توقفا عند الخان ، واستقبلتهما صاحبته اليهودية فى سوقية ، وهى تقول :

ـ نحن لا نقدم خدمات مجانية للجياد .

هبطا عن جواديهما ، و (فارس) يقول لها فى صرامة :

ـ قدمى الماء والطعام للجوادين يا امرأة ، وسندفع مقابل كل شىء .

وألقى إليها (مهاب) قطعة نقود ذهبية ، وهو يضيف :

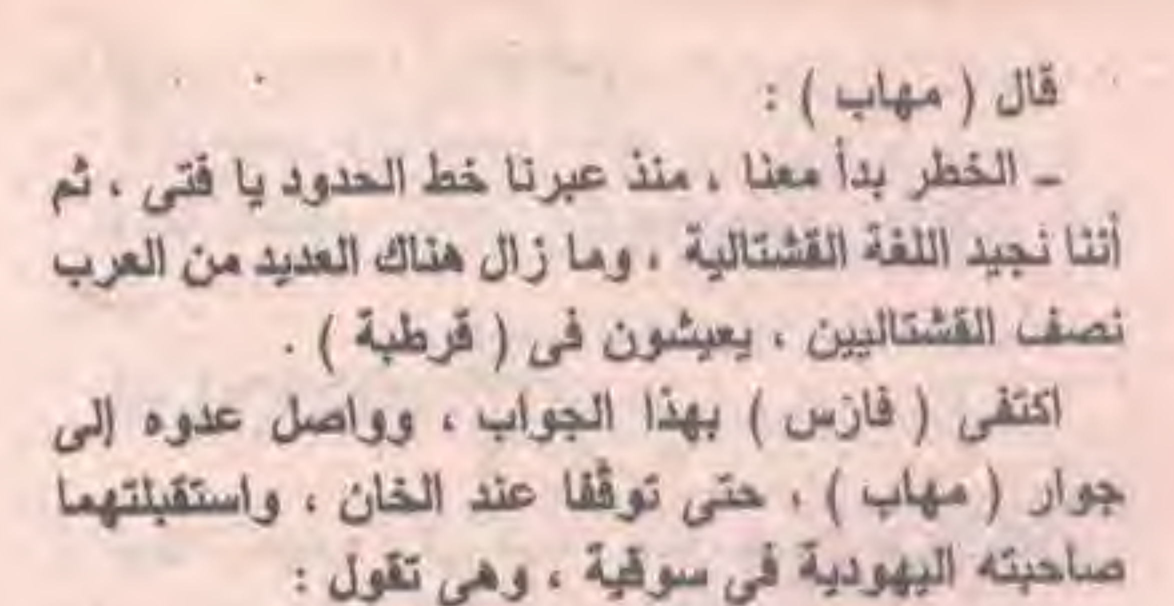
ـ وهذه القطعة تحت الحساب .

التقطت المرأة القطعة الذهبية فى لهفة ، وقلبتها بين أصابعها ، وهى تقول فى دهشة :

ـ أهو ذهب حقيقى ؟

ثم اختبرتها بأسنانها ، قبل أن تقول فى ترحاب :

ـ هيا .. مرحبًا بكما .. لو أنكما تحملان المزيد منها ، فستجدان لدينا كل العناية والرعاية .



توقفا عند الخان ، واستقبلتهما صاحبته اليهودية فى سوقية ..

سألها (فارس) ، وهو يدلف إلى الخان :

- وماذا عن الجوادين ؟

أجابته فى جشع ، وعيناها تبرقان مع الذهب :

- سيحصلان على الكثير من الماء والطعام .. اطمئنا ..

دخل الإثنان الخان ، وألقى (مهاب) جسده على أقرب مقعد إليه ، وهو يقول :

- الماء .. أريد الكثير من الماء ، فحلقى أشبه بصحراء لم تسقط عليها قطرة من مطر ، منذ قرن كامل .

أسرع زوج المرأة يقدم لهما الطعام والشراب ، ثم أشارت إليه امرأته ، فتسلل إليها ، يسألها :

- ماذا هناك ؟

أجابته فى جشع مقزز :

- هذان العربيان يحملان كنزًا من المال .

برقت عيناه فى جشع أكثر ، وهو يهتف :

- حقًا ؟!

أشارت بكفيها ، قائلة :

- لقد أعطانى الرجل قطعة نقود ذهبية ، من كيس ضخم ، سمعت رنينًا عذبًا داخله ، وأكاد أقسم أنه يمتلئ حتى حافته بالذهب .

كاد بريق عينيه ينافس ضوء الشمس ، وهو يقول :

- وكيف نحصل على ما لديهما ؟.. هل نبلغ القشتاليين عنهما ؟..

قالت فى حدة :

- ثم يأتى القشتاليون ، ويأسرونهما أو يقتلونهما ، ويحصلان على الذهب كله .. أليس كذلك ؟!

عقد حاجبيه ، مغمغمًا :

- هذا صحيح .. ماذا نفعل إذن ؟

ثم هتف فى لهفة :

- يمكننا أن ندسّ السم لهما فى الشراب .

صاحت فى وجهه :

- وماذا لو رآهما أحد نزلاء الخان ، وهما يلفظان أنفاسهما الأخيرة ، وأدرك أننا قتلناهما .. سيضعنا هذا فى مشاكل لا حصر لها .

سألها فى حيرة :

- ماذا نفعل إذن ؟

اتسعت عيناها ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة شريرة ، وهى تميل نحوه ، قائلة :

- لدى خطة أخرى ، تحقق لنا فوزًا عظيمًا .

سألها فى لهفة :

- ما هى ؟!

أشارت إليه بسبابتها ، قائلة :

ـ اقترب ، وسأخبرك .

اقترب منها فى طمع ، وراح يستمع إليها فى انتباه كامل ، جعل من الواضح أنهما ليسا وحدهما ..

كان معهما ثالث ..

ثالث اسمه الشيطان .

* * *



٣ ـ لعبة ملكية ..

قلبت الملكة (إيزابيلا) شفتيها فى امتعاض ، وهى تدلف إلى برج الحمام الزاجل ، الملحق بالقصر ، وبدا عليها الازدراء ، وهى تتطلّع إلى الملك (فرناندو) ، الذى انهمك فى فحص واحدة من الحمام الزاجل ، وقالت فى شىء من التوتر :

ـ كم يدهشنى وجودك هنا يا مولاى ؟

توقف (فرناندو) بغتة عما يفعله ، واستدار إليها فى حركة حادة مستفزة ، ولكنه لم يكن يتبينها ، حتى استعاد هدوءه ، وعاد إلى عمله ، قائلًا :

ـ كيف حالك يا ملكة (قشتالة) و (ليون) .. ما الذى أتى بك إلى مكان لا يؤمّه سوى الخدم والعبيد ؟

انعقد حاجباها فى غضب ، وهى تقول فى استنكار .

ـ دعنى ألقى عليك أنا هذا السؤال أوّلًا ، فالفضول وحده هو الذى جعلنى أجازف بدخول مثل هذا المكان ، بعد أن كدت أتهم وصيفاتى بالكذب والجنون ، عندما قلن إن (فرناندو) العظيم ذهب بنفسه إلى برج الحمام .

ابتسم فى سخرية ، وهو يجيب :

ـ هذا لأن الملكة الطاهرة تتصوّر أنها تحيا فى جنة الله

فى الأرض ، ولا تدرك أنه فى بعض الأمور ، تكون السرية أمرًا لا تنازل عنه ، حتى أنه يستحسن أن يتنازل المرء عن شىء من غروره ، لضمان عدم وقوع الأسرار فى أيد غير أمينة .

قالت فى حدة :

ـ وأية أسرار تلك ، التى تستدعى مثل هذه السرية ؟

انتزع ورقة مطوية من ساق الحمامة ، قبل أن يطلق سراحها ، ويلتفت إلى الملكة ، قائلًا فى حزم :

ـ هذه مثلًا .

وفضّ الورقة فى سرعة ، وقرأها ، ثم استطرد :

ـ لقد عبر (فارس) و (مهاب) حدودنا مساء أمس .

قالت متسائلة :

ـ (فارس) و (مهاب) ؟!

ـ أومأ (فرناندو) برأسه ، وهو يقول :

ـ نعم .. ذلك الفارس العربى الأبيض .. ابن أمير (قرطبة) السابق ، وقائد الفرسان .. هل نسيتهما ؟

انعقد حاجباها ، وهى تقول :

ـ هذا يعود إلى عهد بعيد ، وكنت أيامها صغيرة السن ، حتى أننى ..

قاطعتها ضحكة مجلجلة ، انطلقت من حلق الملك ، فاحتقن وجهها بشدة ، وغمغمت فى غضب :

ـ أنت .. أنت ..

انعقد حاجباه فى صرامة مباغتة ، وهو يقول :

ـ كفى عن سخافاتك هذه .. انس أنك امرأة ، وتعاملى كملكة ، فى مواجهة هذا الموقف العسير .. هل تدركين ما يعنيه وصول (فارس) و (مهاب) إلينا ، ومخاطرتهما بعبور حدود ، يطل جنودنا على كل شبر منها ؟

ظلّ وجهها على احتقانه ، وهى تقول :

ـ كلّا ..

قال فى حدة :

ـ يعنى أن العرب لم يبتلعوا الطعم تمامًا ، وأنهم ما زالوا يشكّون فى الأمر ، ولهذا أرسلوا الفارس الأبيض وقائد الفرسان لتحرّى الأمر .. باختصار .. يعنى أن خطتنا للسيطرة على ما تبقى من (الأندلس) فى خطر .. هل فهمت الآن دقة الأمر ؟

ازدردت لعابها فى صعوبة ، وغمغمت :

ـ نعم .. لقد فهمت .

ابتسم فجأة ، وكأن شيئًا لم يكن ، وقال :

ـ ولكننى كنت أتوقّع هذا ؟

قالت فى دهشة :

ـ تتوقعه ؟!

أطلق ضحكة مجلجلة ، تمتلئ بالزهو والغرور ، قبل أن يقول :

ـ بالتأكيد يا عزيزتى .. إنها اللعبة التى أفضلها .. لعبة القط والفأر .. لقد عبرا الحدود ، ولكن إلى أين يتجهان ؟.. إلى (قرطبة) بالطبع .. ولأنهما سيكونان فى قمة الإجهاد والتعب ، بعد أن يعدوان بجواديهما طوال الليل ، فمن الطبيعى أن يتوقفا للحصول على قسط من الراحة وبعض الطعام والشراب ، لهما ولجواديهما ، وعندما يفكرون فى هذا ، سيجدان أمامهما خان (راشيل) .

قالت فى توتر :

ـ من (راشيل) هذه ؟

لوّح بكفه ، قائلًا :

ـ ومن يهتم بمن (راشيل) هذه .. إنها مجرّد امرأة يهودية ، تمتلك خانًا حقيرًا ، فى الطريق إلى (قرطبة) ، وفى خانها هذا ستتخذ اللعبة منحنى آخر .. منحنى دمويًا .

نطق عبارته الأخيرة ، وهو يلوّح بذراعيه فى عنف ، فانطلقت أزواج الحمام مذعورة فى سماء البرج ،

وصرخت (إيزابيلا) ، وهى تحمى وجهها ، وامتزجت صرختها بضحكة مجلجلة ساخرة ..

ضحكة ملكية ..

* * *

تنهّد (مهاب) فى حرارة ، بعد أن انتهى من تناول طعامه ، وربّت بكفه على بطنه ، وهو يقول فى استمتاع :

ـ وجبة رائعة ، لن يكمل لذتها إلا قسط من النوم .

ابتسم (فارس) ، وهو يقول :

ـ ليس هنا بالتأكيد .

بدا شبح ابتسامة على وجه (مهاب) ، وهو يسأله ، دون أن يلتفت إليه :

ـ ولِمَ لا ؟!

قال (فارس) فى هدوء :

ـ قد تضطرك الظروف لتناول طعامك فى وكر أعدائك ، ولكن لا تغمض عينيك فيه أبدًا .

اتسعت ابتسامة (مهاب) ، وهو يقول :

ـ أحسنت يا فتى .. إنك تحفظ دروس الشيخ جيدًا .

ثم نهض فى حزم ، والتقط سيفه ، مستطردًا :

ـ هلم بنا ، سنبحث عن مكان مستتر فى الخلاء ، نستعيد فيه نشاطنا بقليل من النوم .

نهض (فارس) بدوره ، ولكن قبل أن يستعيد سيفه الفضى ، هرع نحوهما زوج (راشيل) ، وهو يحمل صينية كبيرة ، وفوقها كأسان من البلّور ، وهو يهتف :

- الى أين أيها السيدان ؟.. وجبتنا لم تنته بعد .

قال (مهاب) ، وهو يلقى قطعة نقود ذهبية فوق الصينية :

- نشكرك يا رجل .. لقد شبعنا تمامًا ، وكانت وجبة رائعة بالفعل .

دوى رنين قطعة النقود الذهبية ، وهى ترتطم بسطح الصينية ، وامتزج بصوت اليهودى ، وهو يقول فى لهفة :

- شراب الختام يجعلها أكثر روعة .

لوَّح (فارس) بكفه ، وقال :

- لا نريد شرابًا .

صاح الرجل بسرعة :

- ولكنه تحفة الخان .. إنه شراب مجانى ، تمنحه لكل عميل ، كهدية من الخان .

توقَّف (مهاب) ، ومطَّ شفتيه ، وغمغم :

- لا بأس من رشفة أو رشفتين .. مم يتكوَّن هذا الشراب يا رجل ؟



هرع نحوهما زوج (راشيل) ، وهو يحمل صينية كبيرة ، وفوقها كأسان من البلّور ..

ظهرت (راشيل) بغتة ، وهى تقول بلهفة عجيبة :
ـ الخمر .. أفضل خمور (الأندلس) ، وأغلاها سعرًا .
تبادل (فارس) و (مهاب) نظرة سريعة ، ثم قال الأوَّل ، وهو يتمنطق بسيفه الفضى :
ـ هذا يحسم الأمر إذن .. نحن لا نجرع الخمر قط .
صاحت (راشيل) فى عصبية :
ـ ولكن من الضرورى أن تجرعا هذا الشراب .. اشرباه على الفور .
ارتفع حاجبا (مهاب) فى دهشة ، فى حين انعقد حاجبا (فارس) فى صرامة ، وهو يسأل الرجل :
ـ ما الذى يحويه هذا الشراب ؟
ارتبك الرجل فى شدة ، وتراجع قائلًا :
ـ الخمر يا أمير العرب .. الخمر فحسب .. لم نضع شيئًا آخر فيه .
كان تراجعه ، وارتباكه ، وثورة المرأة أسبابًا كافية لتفجير كل الشك والغضب فى نفس (فارس) ، الذى استلَّ سيفه فى حدة ، صائحًا :
ـ ماذا وضعتما فى هذا الشراب ؟
تراجع الرجل مرة أخرى ، ثم ألقى الصينية فى وجه (فارس) ، وصرخ :
ـ اهربى يا (راشيل) .

ولم يكد ينطقها ، حتى صرخت (راشيل) :
ـ النجدة .. النجدة .
وانطلقت تعدو خارج الخان ، فى حين حاول زوجها اللحاق بها ، ولكن (فارس) قفز خلفه ، وجذبه من عنقه ، وألقاه أرضًا ، وهو يصرخ فى وجهه :
ـ قل لى أيها الحقير : لماذا وضعت لنا السم فى الشراب ؟
لوَّح الرجل بكفيه فى ذعر ، وهو يهتف :
ـ ليس سمًا يا أمير العرب .. أقسم لك .. ليس سمًا .. إنها فكرة (راشيل) وليست فكرتى .. لقد أضافت منقوع بعض الأعشاب اليمنية إلى الخمر .. كنتما ستستغرقان فى نوم عميق فحسب ، وفى أثناء نومكما نجردكما من كنزكما الذهبى .. هذا كل ما هنالك .. أقسم لكما .
قال (مهاب) فى غضب :
ـ هل تعلم الجزاء الذى تستحقه يا رجل ؟
ثم استل سيفه بحركة عنيفة ، مستطردًا :
ـ قطع رقبتك .
صرخ الرجل فى ارتياع شديد :
ـ لا .. إنها ليست فكرتى .. إنها فكرة (راشيل) .
وفجأة انفتح الباب فى عنف ، وظهرت على عتبته (راشيل) ، وهى تقول :

- لا تتهرّب من المسئولية أيها الجبان الحقير .. لقد عدت .

ثم أطلّت من عينيها نظرة شرسة ظافرة ، وهى تستطرد فى شماتة :

- مع جيش من فرسان قشتالة .

ومع آخر حروف كلماتها ، اندفع أكثر من ثلاثين فارسًا قشتاليًا إلى الخان ، وكلهم يحملون سيوفهم ، و ...

وكراهيتهم لكل العرب ..

★ ★ ★

اندفع الفرسان القشتاليون داخل الخان ، وهم يشهرون سيوفهم ، ويتصوّرون أن فريستهم سهلة المنال ، فهم يتجاوزون الثلاثين بفردين ، ويواجهون خصمين لا أكثر ..

ولكن الخصمين لم يكونا عاديين ..

لقد انطلقت من حلقيهما صرخة قتالية مرعبة ، وانقضا على جيش القشتاليين الصغير ، وكأنهما الأكثر عددًا وعدة ، وهوى سيفاهما على الصدور والأعناق فى بسالة وجرأة ، جعلت القشتاليين يتراجعون ، وقائدهم يهتف :

- التفوا حولهما .. لا تسمحوا لهما بإخافتكما .

ولكن (فارس) قلب إحدى الموائد فى وجه القشتاليين ، وهو يضرب عنق أحدهم بسيفه ، هاتفًا :

- ماذا أصابكم يا فرسان (قشتالة) ؟!.. هل انحفر الخوف فى قلوبكم ؟

كانوا يتراجعون بالفعل على نحو عجيب ، وتطيش ضرباتهم أو معظمها ، فيما عدا خمسة منهم ، انقسموا إلى فريقين ، وهاجموا (فارس) و (مهاب) من الجانبين ، وأحدهما يصرخ فى الآخرين :

- اهجموا أنتم من الأمام .. لقد أفسحنا لكم الطريق .

كان هؤلاء الخمسة يقاتلون كالوحوش الكواسر ، ويضيقون الخناق على (فارس) و (مهاب) بالفعل ، وعلى الرغم من هذا ، فقد تردد الباقون فى الهجوم ، فتراجع (فارس) نحو سلم الخان ، الذى يقود إلى طابقه العلوى ، وهو يهتف بالعربية :

- كيف نخرج من هذا المأزق يا (مهاب) ؟

وثب (مهاب) نحو البار ، وهو يصد السيوف الثلاثة ، التى تكاثرت عليه ، وراح صليلها يدوى فى المكان ، وهتف ليعلو بصوته على صوتها :

- لست أدرى !.. لقد قتلنا وأصبنا ستة منهم ، ولكن الباقين يقاتلون كالوحوش .

قفز (فارس) إلى إحدى درجات السلم ، وركل أحد مهاجميه ، وهو يصد سيف الثانى ، ويدفعه بعيدًا ، هاتفًا :

- هل تحبذ القرار ؟

صاح (مهاب) ، وهو يلتصق بالبار :

- وكيف السبيل إليه ؟!.. إنهم يملأون المكان . -

قالها ودفع سيفه فى صدر أحد مهاجميه الثلاثة ، وأطلق الرجل صرخة رهيبة ، وهو يسقط صريعا ، فى حين صعد (فارس) فى درجات السلم عدوًا ، وخلفه مهاجماه ، حتى بلغ الطابق الثانى ، فاشتبك معهما فى نزال أكثر عنفًا ، و (مهاب) يصرخ :

- قاتل يا فتى .. ليس أمامنا سوى أن نفعل .. قاتل فى استماتة .. اقتلهم ، أو مت كفارس عربى .

ولكن (راشيل) برزت فجأة ، من خلف (مهاب) ، وصاحت وهى ترفع زجاجة كبيرة :

- انتهى وقت الكلام أيها العربى .

ثم هوت بالزجاجة على رأس (مهاب) ، مستطردة فى شماتة :

- وحان وقت الموت .

كانت الضربة شديدة العنف ، دار لها رأس (مهاب) ، فاندفع سيف أحد القشتاليين يخترق ذراعه ، ويسقط سيفه ، فى حين رفع القشتالى الآخر سيفه ، وهو يصرخ فى هياج :

- خذ هذه الطعنة منى أيها العربى .. خذها من أجل كل قشتالى قتلته .

ورأى (فارس) معلمه يترنح فى مكانه ، والدماء تنزف من ذراعه المصابة ، وقشتالى يهم بغرس سيفه فى قلبه ، فصرخ :

- لا .. ليس (مهاب) .

ثم دفع مهاجميه بعيدًا ، ووثب عبر حاجز الطابق الثانى ، ليتعلق بالثريا المدلاة من السقف ، ويندفع بها نحو القشتاليين ، مستطردًا فى غضب :

- لن أسمح لكما .

ولكن فجأة ، انقطع حبل الثريا ، وسقطت بالفارس العربى وسط القشتاليين ، فصرخ قائدهم :

- ها هو ذا بينكم ، مزقوه إربًا .

اندفع بعض القشتاليين نحو (فارس) ، الذى راح يضرب بسيفه يمينًا ويسارًا ، ولكن القشتالى ، الذى كان يهمّ بقتل (مهاب) انقضّ عليه ، وضرب سيفه فى قوة ، فأطاح به بعيدًا ، وهو يقول ساخرًا :

- قضى الأمر أيها العربى .

ومع ضياع سيفه ، انقضّ باقى القشتاليين على (فارس) ، وراحوا يضربونه ويلكمونه ، وهو يقاتل كالليث ، ولكن ..

لا مفرّ من تطبيق تلك القاعدة الشهيرة ..
الكثرة تغلب الشجاعة ..
لقد تكالب الرجال على (فارس) ، وكبلوه جيدًا ، وحملوه إلى حيث يسيطر الباقون على (مهاب) ، وابتسم قائد القشتاليين فى شماتة ، وهو يلوّح بسيفه ، قائلًا :
ـ أحسنت القتال أيها العربى .. لقد جندلت وحدك خمسة من رجالنا ، على الرغم من صغر سنك ، وتستحق بهذا مكافأة خاصة .
ثم برقت عيناه ، وهو يستطرد :
ـ ستكون أوّل من يموت .
صرخ (مهاب) فى حدة :
ـ لا .. لن تقتلوا (فارس) .
وعلى الرغم من مكبليه ، قفز بقدمه ليركل سيف القشتالى ، الذى تراجع بسرعة متفاديًا الركلة ، ثم ضرب صدر (مهاب) بسيفه صارخًا :
ـ كيف تجرؤ أيها العربى ؟..
كانت الضربة من القوة ، بحيث تكفى لشق صدر (مهاب) ، ولكن تراجع القشتالى جعلها تمزّق ثوبه ، وتجرح صدره جرحًا مائلًا ، سالت منه الدماء فى غزارة ، فصاح (فارس) :

ـ أيها الحقير .. لقد أصبته غدرًا .
اعتدل القشتالى ، وهو يقول ساخرًا :
ـ اطمئن .. لن ينزف حتى الموت .. على الرغم من أنها فكرة مغرية ، فأوامر (فرناندو) العظيم هى ألا يبقى أحدكما على قيد الحياة .
قال (مهاب) فى ضعف :
ـ معذرة يا (فارس) .. لم أتصوّر أبدًا يا ولدى أن تأتى النهاية على هذا النحو .
هتف به (فارس) فى شموخ :
ـ لا تعتذر يا معلّمى .. إننى أومن تمامًا بما علمتنى إياه .. مادام الموت آت لا محال .. فلنمت كفارسين عربيين .
قهقه قائد القشتاليين فى شماتة ، وهو يقول :
ـ فليكن .. مت كفارس ، أو مت كفأر .. كل الجثث تدفن فى النهاية .
ثم أشار إلى رجاله ، مستطردًا فى صرامة ، وهو يشير إلى إحدى الموائد .
ـ ألقوه*هنا .

دفع الرجال (فارس) إلى الأمام ، وألقوا وجهه على المائدة ، فى حين رفع القشتالى سيفه ، وهو يقول فى مزيج ساخر شامت :

ـ من المؤسف أن قطع عنقك سيلوّث حلتك البيضاء الجميلة هذه .

وقهقه بشدة ، وهو يستطرد :

ـ هيا .. قل وداعًا لعالم الأحياء أيها العربى .

وهوى بسيفه على عنق (فارس) .

★ ★ ★



وقهقه بشدة ، وهو يستطرد :

ـ هيَا .. قل وداعًا لعالم الأحياء أيها العربى ..

٤ - الفرســان ..

استنشق (فرانشسكو) هواء البحر فى عمق، واتسعت ابتسامته فى زهو، وهو يراقب سطح البحر الهادئ، ويقول وكأنه يحدث نفسه :

- عظيم .. كل شىء على ما يرام .. كل شىء على ما يرام .

مطّ قبطان السفينة شفتيه، وقال :

- ولكننى ما زلت أجهل وجهتنا يا سنيور (فرانشسكو)، وهذا لا يروق لى .

ابتسم (فرانشسكو) فى هدوء، وقال :

- هذا أفضل أيها القبطان .

قال القبطان فى غضب :

- ماذا تعنى بأن هذا أفضل ؟!.. أنا قبطان هذه السفن السبع، التى تحمل نصف جيش (قشتالة)، فكيف أجهل وجهة أسطولى .

أشار (فرانشسكو) بيده، وقال :

- إننا نتجه نحو الغرب .. هل يكفيك هذا ؟

قال القبطان فى عصبية :

- إلى أية نقطة فى الغرب ؟!.. هل سنعبر (أعمدة

هرقل) (*) أم نتوقف فى وسط البحر ؟.. أم ماذا ؟!!

قهقه (فرانشسكو) ضاحكًا، وقال :

- لا هذا ولا ذاك .. اطمئن .

ثم استعاد وجهه جديته بغتة، وهو يميل نحوه، مستطردًا فيما يشبه الهمس :

- إننا سنهبط على ساحل مملكة (غرناطة) .

لم تبد الدهشة على وجه القبطان، وهو يقول :

- كنت أعلم هذا .

ثم استطرد فى لهفة :

- ولكن أين ؟!.. أين سترسو سفننا ؟

اعتدل (فرانشسكو)، ولوّح بيده، قائلًا :

- لا .. ليس الآن .

ثم شرد ببصره، مستطردًا :

- دعنى أحتفظ بجزء من السر لنفسى .

وبرقت عيناه مرة أخرى، وهو يضيف :

- الجزء الأكثر خطورة .

(*) أعمدة هرقل : اسم كان يطلق قديمًا، على ما يعرف الآن باسم (مضيق جبل طارق)، وهو المضيق الذى يصل البحر الأبيض المتوسط بالمحيط الأطلنطى، وترجع التسمية إلى القائد العربى (طارق بن زياد)، ولهذا رفض القشتاليون الاعتراف بها طويلًا، وأصرّ بعضهم على التسمية القديمة، لفترة طويلة من الزمن .

وعادت ضحكته تجلجل من جديد ..

★ ★ ★

لم يكن هناك مايحول بين سيف القشتالى وعنق (فارس) ..

لقد كبَّل القشتاليون حركة فارسنا تمامًا ، والقشتالى لن يخطئ ضرب عنقه من هذه المسافة القصيرة ، و ..

ولكن لا شيء مؤكَّد ، فى هذا العالم ..

لقد رفع القشتالى سيفه ، وهوى به بالفعل ..

ولكن السيف لم يسقط على عنق (فارس) ..

لقد اندفع سهم فجأة ، عبر الخان كله ، وانغرس فى قلب القشتالى ، واقتلعه من موضعه ، وأسقطه مع سيفه على بعد مترين ، وهو يطلق شهقة ألم ودهشة وفزع ، وسيفه يضرب الهواء ، ثم يهوى فوق جثته ..

وفى حركة عنيفة ، التفت الجميع إلى حيث انطلق السهم ..

إلى مدخل الخان ..

وهناك رأوه ..

عملاق أسود رهيب ، يأتى ضوء الشمس من خلفه ، فيخفى ملامحه الأساسية ، ويلقى أمامه ظلًا هائلًا ، أضفى على المشهد المزيد من الرهبة ، وخصوصًا أن ذلك الزنجى ، الذى ألقى قوسه وكنانته أرضًا ، لم يكن يحمل سيفًا ليقاتل به ..

بل بلطــة ..

بلطة ماردة ، يكاد نصلها الحاد ينافس ضوء الشمس المنعكس عليه ، بريقًا وحرارة ..

ثم فجأة ، أطلق العملاق الزنجى صرخة ، ارتجفت لها القلوب فى الصدور ، وهو يثب نحو القشتاليين ، ويهوى عليهم ببلطته ..

وتفجَّرت الدماء فى قلب الخان ، وسقط القشتاليون صرعى كالذباب ، وحاول بعضهم الفرار رعبًا ، فى حين انهار البعض الآخر ، وهم يصرخون :

ـ لا .. لا .. الرحمــة .. الرحمــة ..

وهنا توقف العملاق الأسود ، وخفض بلطته إلى جواره ، والدماء تسيل منها ، لتصنع بركة بين قدميه ، ووجهه الصارم الصامت يحطم ما تبقى فى قلوب الأحياء من جيش القشتاليين الصغير ، فى حين هبَّ (فارس) واقفًا ، وهو يهتف :

ـ (فهد) .. كنت أتساءل : لماذا لم تظهر حتى الآن ؟

أدار (فهد) عينيه إليه ، بنظرة تحمل الاعتذار والتبجيل ، فهتف (فارس) :

ـ أشكرك يا صديقى .. لقد قمت بواجبك خير قيام .

ثم اندفع نحو (مهاب) ، وسأله :

ـ كيف حالك ؟

حاول (مهاب) منع الدماء التى تنزف فى صدره ، وهو يقول فى تهالك :

- صدقنى يا فتى .. لست أهاب الموت .

كانت هذه العبارة تعكس ما يملأ صدره ، فصاح (فارس) :

- (فهد) .. أيمكنك عمل شىء ؟

اتجه (فهد) فى هدوء إلى (مهاب) ، وراح يفحص جرحه ، فى حين جذب (فارس) أحد القشتاليين المنهارين ، وقال له فى صرامة :

- كنتم تعلمون أننا هنا .. أليس كذلك ؟

هتف الرجل :

- لم أكن أعلم شيئًا .. أقسم لك .. أنا لست جنديًا محاربًا .. أنا مجرّد فلاح عادى ، حضرت مع رفاقى لترعى أرض السادة ، بعد استعادة قرطبة ، ولكنهم ألبسونا ثياب الفرسان ، منذ أسبوع أو يزيد ، وأتوا بنا إلى هنا .. أقسم لك أنها الحقيقة ، أيها الفارس العربى .. ربعنا على الأكثر من فرسان الجيش ، أما الباقون فمجرّد فلاحين مساكين .

انعقد حاجبا (فارس) فى دهشة ، وهو يقول :

- ولماذا ألبسوكم ثياب الفرسان ؟.. أين فرسان (قشتالة) إذن ؟

ارتجف الرجل فى ارتياع ، وهو يقول :

- لست أدرى .. الأقاويل كثيرة ، ولسنا ندرى أيها يحمل الحقيقة .. ولكن .. ولكن ..

قبل أن يتمّ الرجل عبارته ، لمح (فارس) (راشيل) ، وهى تحمل سكينًا ضخمة ، وتنقضّ على (فهد) من الخلف ، فصاح :

- احترس يا (فهد) .

وقبل حتى أن تكتمل صيحته ، كان (فهد) يدور على عقبيه ، ويهوى بنصل البلطة الضخمة على عنق (راشيل) ، دون أن يتبين حتىّ شخصيتها ..

وأطلقت (راشيل) صرخة أخيرة ، والبلطة تجتز عنقها اجتزازًا ، وتفصله عن جسدها ، وتلقى رأسها فى نهاية الخان ..

وصرخ (مهاب) فى حدة :

- ويحك يا (فهد) .. لقد قتلت امرأة .

خفض (فهد) بلطته فى ضيق ، ثم ألقاها جانبًا ، و (فارس) يتنهّد قائلًا :

- كان يدافع عن حياته يا (مهاب) .. لم يكن يعلم حتى أنها امرأة .

أومأ (مهاب) برأسه موافقًا ، ثم ألقى نظرة طويلة على جثة (راشيل) ، قبل أن يتمتم :

- إنه قدرها .. كانت تستحق هذا .
ويبدو أن هذه العبارة قد أراحت (فهد) ، الذى استعادت ملامحه جمودها ، وعاد يضمد جراح (مهاب) ، فى حين التفت (فارس) إلى القشتالى ، وسأله :
- وماذا تقول الأقاويل ؟
تردد الرجل لحظة ، ثم اندفع قائلًا :
- يقولون : إنهم ينقلون معظم الفرسان إلى (قرطاجنة) ، ولا أحد يعلم لماذا ، ولكنهم يلبسوننا ثياب الفرسان ، حتى لا يبدو الانخفاض فى حجم الجيش واضحًا .
انعقد حاجبا (فارس) فى شدة ، وهو يدرس ما سمعه من القشتالى ، فى حين تأوه (مهاب) ، وهو يقول :
- رويدك يا (فهد) .. أعلم أن إصاباتى جسيمة ، ولكن لا داعى لأن تؤلمنى على هذا النحو .
التفت (فارس) إليهما ، ورأى (فهد) ينتهى من تضميد جراح (مهاب) ، فاتجه إليهما وقال فى حزم :
- عد بـ (مهاب) إلى المعسكر يا (فهد) .
التفت إليه (فهد) فى تساؤل ، فى حين هتف (مهاب) مستنكرًا :
- ماذا تقول يا (فارس) ؟!

قال (فارس) فى حزم :
- سامحنى يا معلم السلاح ، ولكنك مصاب ، وتحتاج إلى راحة طويلة ، ومن الواضح أن الأمر أخطر مما نتصور .. هناك شىء ما يدور فى (قرطاجنة) ، ولسنا ندرى ما هو بالضبط ، ولكن يحتاج إلى الذهاب مباشرة إلى ذلك الميناء .
قال (مهاب) فى حدة :
- لو أنك تنوى الذهاب إلى (قرطاجنة) ، فلن تذهب وحدك .
انعقد حاجبا (فارس) فى صرامة ، وأدار عينيه إلى (فهد) ، قائلًا :
- (فهد) .. هل تطيع أوامرى ، أيًا كانت ؟
استدار إليه (فهد) فى صمت ، ولكن عينيه حملتا جوابًا حاسمًا واضحًا ، فاستطرد (فارس) فى حزم :
- عد بـ (مهاب) إلى الشيخ .
صاح (مهاب) :
- (فارس) .. تخطئ لو تصورت أننى ..
ولكن فجأة ، هوت قبضة (فهد) على فكه ، بضربة بدت خفيفة بسيطة ، ولكنها أخرسته بغتة ، وأسقطته فاقد الوعى ، بين ذراعى العملاق الأسود ، الذى حمله كطفل

صفير ، وغادر الخان ، ليلقيه على صهوة جواده ، ثم يثب على جواده الأسود ، وينطلق بالجوادين فى سرعة .

وهنا ، تنفس (فارس) الصعداء ، وغمغم :

- والآن .. إلى (قرطاجنة) .

وعندما انطلق به جواده ، مبتعدا عن الخان ، كان يدرك أنه إنما يذهب بقدميه إلى أخطر مهمة .

وربما آخرها .

* * *



٥ - ميناء القتلة ..

كانت الشمس تميل إلى الغروب ، عندما تقدم أحد فرسان (قشتالة) نحو (كريستوبال) ، وقال فى لهجة رسمية :

- هل نغلق الأبواب الآن يا سيِّدى ؟

تطلَّع (كريستوبال) لحظات إلى السهول الممتدَّة أمامه ، من فوق برج المراقبة ، ثم التفت إلى الجندى ، قائلًا :

- لم تغرب الشمس بعد .

مطَّ الجندى شفتيه ، وقال :

- لا أحد يأتى إلى (قرطاجنة) ، فى مثل هذا الوقت يا سيِّدى .

انعقد حاجبا (كريستوبال) فى شدة ، وأشار إلى نقطة بعيدة ، قائلًا :

- حقًّا ؟!.. من هذا إذن ؟

استدار الجندى بسرعة ، إلى حيث يشير (كريستوبال) ، ورأى جوادًا أبيض شاهقًا ، يعدو بكل سرعته نحو أبواب المدينة ، وعلى متنه فارس شاب ، يمتطيه بلا سرج أو لجام ، وهو يرتدى ثيابًا عادية بسيطة ، ويحمل على ظهره

جعبة كبيرة ، يطل منها مقبض سيف فضى ، تنعكس عليه أشعة الشمس الذابلة ، فيبدو أقرب إلى الذهب ، منه إلى الفضة ..

وبدهشته كلها ، هتف الجندى :

ـ من هذا الفارس ؟

عقد (كريستوبال) ساعديه أمام صدره ، وقال وهو يتابع اقتراب الفارس من الأبواب :

ـ يبدو لى كفارس عربى .

انتفض القشتالى ، وهو يهتف :

ـ عربى ؟

ثم استطل سيفه ، مستطردًا :

ـ الويل له ، لو كان كذلك .

أمسك (كريستوبال) معصمه فى حزم ، وهو يقول :

ـ انتظر .. دعه يدخل (قرطاجنة) .

حدق الجندى فى وجهه بدهشة ، ثم هتف :

ـ ما الذى تقوله يا سيدى ؟.. فرصتنا أعظم بالتأكيد ، فى اقتناصه عند الأبواب ، فلو دخل المدينة فسيختلط بسكانها ، ويصبح العثور عليه عسيرًا للغاية ..

ابتسم (كريستوبال) فى خبث ، وقال :

ـ سنرسل خلفه عيوننا ، من اللحظة الأولى .. نريد أن نعلم : هل له رفاق هنا ؟



ورأى جوادًا أبيض شاهقًا ، يعدو بكل سرعته نحو أبواب المدينة ، وعلى متنه فارس شاب ..

عقد الجندى حاجبيه فى شدة ، وهو يقول :
- هذا لا يروق لى أبدًا ، ولكننى لا أملك سوى طاعتك يا سيِّدى .. سنسمح لذلك العربى بدخول (قرطاجنة) ، ونرسل خلفه عيوننا ، ولكن لو انتبه إلى هذا ، وحاول الفرار من المراقبة ، فلن يكون أمامنا سوى إجراء واحد .
وأعاد سيفه إلى غمده فى حزم ، مستطردًا :
- أن نقتله .
وانصرف فى خطوات عسكرية صارمة ..

★ ★ ★

أطلق (فارس) زفرة ارتياح ، من أعمق أعماق قلبه ، عندما بلغ أبواب (قرطاجنة) ..
كان مرهقًا بشدة ، بعد أن قضى ما يقرب من يوم كامل فى حركة متصلة ، ولم يكن جواده (رفيق) بأقل منه تعبًا وإرهاقًا ، بعد طول عدوه ، لذا فقد عبر الإثنان أبواب المدينة وهما يلهثان ، فاستوقفهما أحد حراس الأبواب ، وهو يقول فى خشونة :
- من أنت أيها الغريب ؟.. وما الذى أتى بك إلى (قرطاجنة) ؟
أجابه (فارس) بلغة قشتالية سليمة ، لا يتطرَّق إليها الشك :
- أنا دون (فاريو) ، من قرطبة ، وأتيت لتفقد إقطاعية صديق لى هنا .

هزَّ اللقب كيان الجندى ، فخفض رمحه ، وهو يقول :
- مرحبًا بك فى (قرطاجنة) يا دون (فاريو) .. ولكن لماذا تقود جوادك بلا سرج أو لجام .
ابتسم (فارس) فى تهالك ، وقال :
- إنه رهان مع صديقى .
أومأ الجندى برأسه ، قائلًا :
- نعم .. أفهم هذا أيها النبيل .
تجاوز (فارس) البوَّابة متهاديًا ، وراح يسير بجواده فى طرقات المدينة ، وعيناه تجوبان المكان ، بحثًا عما يرشده إلى ذلك السر ، الكامن فى (قرطاجنة) ، ثم همس لجواده :
- عجبًا !.. ألم تنتبه إلى هذا يا (رفيق) ؟..
قال الرجل : إنهم يحشدون الجنود فى (قرطاجنة) ، وعلى الرغم من هذا لا تكاد ترى جنديًا واحدًا هنا ، أو ...
بتر عبارته بغتة ، وهو يتطلَّع إلى نقطة ما خلفه ، فأطلق (رفيق) صهيلًا خافتًا ، وكأنما يسأل عن سر انقطاع الحديث المباغت ، فقال (فارس) فى توتر :
- يبدو أن أحدهم يراقبنا يا (رفيق) .. لقد شاهدت أحدهم يختفى خلف ذلك المبنى هناك ، عندما استدرت إليه .. لماذا يفعل هذا ، لو لم يكن يخشى رؤيتنا له ؟!

عاد يتطلع أمامه ، وكأنه لم يلمح ما فعله الرجل ، وهو يستطرد :

ـ لماذا يا (رفيق) ؟.. لماذا يراقبوننا ؟!.. هل تعلم ؟.. الأمر كله لا يروق لى يا صديقى .. فى الخان ، قال الرجل : إنهم يريدون قتلنا ، وهذا يعنى أنهم كانوا يتوقعون قدومنا .. وهنا يراقبنا أحدهم .. ما الذى يحدث بالضبط ؟

أوقف الجواد فجأة ، وتظاهر بالالتفات لالتقاط شىء ما من جعبته ، ولمح الرجل يقفز ليختفى مرة أخرى ، فاعتدل مضيفًا فى حزم :

ـ لم يعد هناك شك يا (رفيق) .. إنهم يتتبعوننا .. ما الذى يحدث بالضبط يا صديقى ؟ .. أهو فخ ؟!.. ولكن هذا مستحيل !.. القشتاليون لن يحشدوا جيوشهم ، ويجمعوا جنودهم فى (قرطاجنة) ، لمجرد الإيقاع بفارس واحد .. هناك غرض آخر حتمًا ، ومراقبتهم لنا تعنى أننا نسير على الطريق الصحيح ، حتى لو لم نر جنديًا واحدًا هنا .. عظيم .. لن نضيع هذه الفرصة إذن يا (رفيق) .. هلم بنا .

وجذب معرفة جواده فى قوة ، فرفع (رفيق) قائمتيه ، وأطلق صهيلًا قويًا ، ثم انطلق يعدو فجأة ، وسط طرقات (قرطاجنة) ..

وهنا ، برز عشرة من الجنود القشتاليين ، من مخابئ مختلفة ، وصاح قائدهم :

ـ إنه يفر منا .. الحقوا به يا رجال .. لا تسمحوا له بالفرار .

انطلقت خيول القشتاليين خلف (فارس) ، فى قلب (قرطاجنة) ، ولكن (رفيق) أثبت أنه جواد لا يشق له غبار ، فقد كان يعدو بين الطرقات ، وكأنما يفعل هذا منذ كان مُهرًا صغيرًا ، ويثب فوق ما يعترضه ، أو يدور حوله ، أو يعبر إلى جواره ، وفارسه يقوده فى مهارة مدهشة ، وبراعة تستحق الإعجاب ، والقشتاليون خلفه ، يرتطمون بما يعترضهم ، ويسقطون المارة والبضائع ، والناس تصرخ وتعدو مبتعدة ..

وعلى الرغم من الإرهاق الشديد ، الذى يشعر به (فارس) ، إلا أنه أطلق ضحكة عالية ، وهتف فى سخرية :

ـ ماذا أصاب فرسان (قشتالة) هذه الأيام ؟.. ألا يتناولون طعامًا جيدًا ، أم ... قبل أن يتم عبارته ، انقض عليه بغتة فارس قشتالى ، من فوق مبنى قريب ، وهو يهتف :

ـ نهاية الطريق أيها العربى .

كانت الانتفاضة عنيفة ، حتى أنها انتزعت (فارس) من جواده ، وأسقطته أرضًا ، مع القشتالى المقاتل ، فاشتبك الاثنان فى قتال يدوى عنيف ، و (رفيق) يطلق صهيلًا عصبيًا متصلًا ، ولكن (فارس) لكم القشتالى بكل قوته فى فكه ، هاتفًا :

- ابتعد أيها القشتالى .. إنك لن تبلغ بعد قوة فارس عربى مثلى .

تراجع القشتالى مع اللكمة ، ثم استل سيفه فى غضب ، وصاح :

- ستدفع الثمن أيها العربى .. ستدفع الثمن .

وانقضّ بسيفه على (فارس) الأعزل ، ولكن (فارس) تفادى الضربة ، وأمسك معصم القشتالى ، هاتفًا :

- خسرت دورك يا رجل ، وحان دورى أنا .

ولكن القشتالى جذب معصمه فى عنف ، وتراجع لحظة ، ثم صرخ وهو يدفع نصل سيفه فى قلب (فارس) :

- خسرت دورك أيضًا ، وحياتك كلها أيها العربى .

وكانت الضربة بارعة وقوية ومدروسة هذه المرة ، فلم تخطئ قلب (فارس) ، الذى التصق بالجدار ، ورأى ذبابة السيف تندفع نحو موضع قلبه ، و ...

وفجأة ، أطلق (رفيق) صهيلًا قويًا ، ورفع قائمتيه ، وضرب بهما الهواء فى قوة أفزعت القشتالى ، فتراجع بسيفه لحظة ..

وفى اللحظة التالية ، كان حافرا (رفيق) ينغرسان فى صدره ..

وشهق القشتالى فى دهشة وألم ، وهو يحدق فى الجواد ، الذى انتزع قائمتيه من صدره ، وعاد يهوى بهما عليه ثانية ، وثالثة ..

وسقط القشتالى جثة هامدة ، فى نفس اللحظة التى ظهر فيها القشتاليون الآخرون ، عند ناصية الطريق ، فصاح (فارس) ، وهو يثب على متن (رفيق) :

- أسرع يا صديقى .. أسرع .

ومرة أخرى ، انطلق (رفيق) يعدو فى طرقات (قرطاجنة) ، ولكن القشتاليين أحاطوا بالمكان ، فهتف (فارس) :

- والآن إلى أين يا صديقى .. لقد وقعنا بين المطرقة والسندان ،

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى سمع صوتًا يهتف به بالعربية :

- هنا .. هنا يا رجل .

لم يكن هناك وقت للتفكير أو الشك ، لذا فقد مال (فارس) بجواده ، واندفع داخل ذلك المنزل ، الذى انبعث منه الصوت ، ولم يكد يدخله ، حتى أغلقَ الباب خلفه ، وسمع الصوت نفسه يقول :

- دع جوادك يصمت ، لو أنه يستطيع هذا .

ربّت (فارس) على عنق (رفيق) ، وهو يهبط عن صهوته ، ورأى صاحب الصوت يوقد شمعة صغيرة ، وهو يستطرد :

- من المؤكد أنهم سيقلبون الأرض بحثًا عنك .

ورأى (فارس) - على ضوء الشمعة - وجه منقذه لأوَّل مرة ..

كان شيخًا طاعنًا فى السن ، أصلع الرأس ، أشيب الفودين ، يرتدى قلنسوة أندلسية مزركشة ، ويبتسم فى سعادة جمة ، جعلت (فارس) يسأله :

- شكرًا لك يا سيِّدى .. إنها مجازفة ضخمة منك .

ربّت الشيخ على كتفه ، وقال :

- لن يمكنك أن تتصوَّر مدى سعادتى بما فعلت يا ولدى .. أنا عربىٌّ مثلك .. عشت أجمل أيام عمرى فى (قرطاجنة) العربية ، ولم أستطع بعد هضم ما حدث ، بعد أن فقدنا (الأندلس) .

قال (فارس) فى حزم :

- لم تفقدها كلها بعد يا عماه .

هزَّ الشيخ رأسه فى أسى ، وقال :

- ما دمنا لم نتغير كما ينبغى ، فما هى إلا مسألة وقت يا ولدى .

ثم اعتدل ، وهو يستطرد بسرعة :

- ولكن دعنا من هذا الآن .. هؤلاء القشتاليون ليسوا بالأغبياء .. سيدركون على الفور أنك لم تتبخر فى الهواء ، وأنك اختفيت داخل أحد المنازل ، ولن تمض لحظات ، حتى يبدأون فى البحث ، والتنقيب فى كل شبر ، وهذا يعنى أن أمامنا لحظات أقصر لحسم الموقف ، والعثور على وسيلة لتهريبك .

سأله (فارس) :

- وكيف يمكننى الفرار منهم ؟

تنهَّد الشيخ ، وربّت على عنق (رفيق) ، قبل أن يقول :

- الخطوة الأولى هى أن تتخلَّى عن جوادك .

هتف (فارس) :

- أتخلَّى عن (رفيق) .. هذا مستحيل !

أجابه الشيخ فى سرعة :

- إنه أمر مؤقت يا ولدى ، فالمدخل الوحيد ، الذى

يتسع لجوادك ، هو ذلك الذى عبرتماه إلى هنا ، وستجد القشتاليين فى كل مكان الآن ، أما المخرج الوحيد لك ، فهو فى الخلف .. نافذة ضيقة ، يمكنك أن تتسلل منها إلى سقف المنزل ، ثم تنتقل من سقف إلى سقف ، حتى تبتعد عن هنا .

قال (فارس) :

ـ وهل سأظل هاربًا طوال الوقت ؟

قلب الشيخ كفيه ، قائلًا :

ـ ليس بيدى ما أفعله يا ولدى سوى هذا .

هز (فارس) رأسه متفهمًا ، ثم انتزع سيفه وحزامه ، وتمنطق بهما ، وخلع الجعبة التى يحملها على ظهره ، وناولها للشيخ ، قائلًا :

ـ ضع هذا على متن الجواد ، ودعه يرحل وحده ، بعد ذهاب القشتاليين .

قال الشيخ فى دهشة :

ـ وحده ؟!

أجابه (فارس) فى حزم :

ـ نعم .. وحده .. إنه يفهم دوره جيدًا ..

ردد الشيخ فى دهشة أكبر :

ـ الجواد يفهم دوره ؟!

ولكنه لم يلبث أن هز رأسه مستسلمًا ، والتقط الجعبة ، قائلًا :

ـ ما هذا بالضبط ؟

أجابه (فارس) :

ـ ثوب خاص ، أفخر بارتدائه دومًا ، ولكننى مضطر للتخلى عنه الآن .

لم يكد يتم عبارته ، حتى هوت قبضة ثقيلة على الباب ، وارتفع صوت صارم قاس ، يقول بالقشتالية :

ـ افتح الباب .

أشار الشيخ إلى (فارس) بسرعة ، قائلًا :

ـ أسرع يا ولدى .. هذه النافذة هناك ، فى نهاية البهو .

انطلق (فارس) يعدو نحو النافذة ، وهو يقول :

ـ إلى اللقاء يا (رفيق) .

فى حين رفع الشيخ صوته ، هاتفًا بالقشتالى :

ـ أنا قادم .. أمهلنى لحظات يا ولدى .. أنا شيخ فى عمر جدك .

فتح (فارس) النافذة ، ووثب منها إلى الخارج ، وتسلق إلى سقف المنزل ، فى نفس اللحظة التى اقتحم فيها

القشتاليون منزل الشيخ ، وراحوا يفتشونه فى عصبية ، وهتف أحدهم ، وهو يشير إلى (رفيق) :

- جواد من هذا ؟

أجابه الشيخ فى هدوء :

- جوادى أنا .. هل ترغب فى شرائه ؟

مطَّ القشتالى شفتيه ، وواصل البحث عن (فارس) ، الذى كان ، فى هذه اللحظة يقفز ، من سقف إلى سقف ، حتى بلغ طريقًا واسعًا آخر ، فقفز إليه ، وقال لنفسه فى توتر :

- والآن ماذا تفعل يا (فارس) ؟.. أنت وحيد ، فى مدينة بلا أصدقاء ، وتواجه بعض القشتاليين الثائرين ، و ...

قبل أن يتمَّ حديثه مع نفسه ، سمع صوتًا يقول فى سخرية :

- لا ريب أننى ملك العرافين .. لقد توقَّعت وجودك هنا .

استدار (فارس) بسرعة إلى مصدر الصوت ، ووقع بصره على وجه (كريستوبال) ، الذى استلَّ سيفه ، مستطردًا :

- قل لى أيها العربى : هل تجيد النزال ؟

امتشق (فارس) سيفه ، وهو يقول :

- دعنا نختبر هذا أيها القشتالى .

والتحم سيفاهما ، و (كريستوبال) يقول :

- لست قشتاليًا أيها العربى .. أنا برتغالى .

ارتفع صليل سيفيهما فى المنطقة ، وأدرك البرتغالى أنه يواجه خصمًا لا قبل له به ، فتراجع فى سرعة ، وهو يهتف :

- من الواضح أنك تلقيت تدريبًا جيدًا يا فتى .

قال (فارس) ساخرًا :

- ومن الواضح أنك لا تجيد التعامل مع السيف أيها البرتغالى .

قالها ، ووثب نحو (كريستوبال) ، وضرب سيفه فى قوة ، ثم تراجع ، وأدار سيفه حول نصل سيف خصمه ، على نحو أربك هذا الأخير ، قبل أن ينتزع (فارس) السيف من قبضة (كريستوبال) ، وهو يقول :

- يلوح لى أنك خسرت اللعبة يا رجل .

سقط (كريستوبال) أرضًا ، وهو يلهث فى انفعال ، ووضع (فارس) ذبابة سيفه على عنقه ، مستطردًا :

- أليس كذلك ؟!

احتقن وجه (كريستوبال) فى توتر ، وقال فى عصبية :

- فليكن .. لقد ربحت أيها العربى .. ماذا تنتظر ؟.. فلننه هذا الأمر بسرعة .. اطعن فى القلب مباشرة .



سقط (كريستوبال) أرضًا ، وهو يلهث فى انفعال ، ووضع (فارس) ذبابة سيفه على عنقه ..

ابتسم (فارس) فى سخرية ، وقال :

ـ إننا نختلف عنكم فى هذا الشأن .

ثم أبعد سيفه عن عنق (كريستوبال) ، مستطردًا :

ـ إننا لا نقتل العزل قط .

اعتدل (كريستوبال) جالسًا ، وهو يقول فى حدة :

ـ ماذا تفعلون إذن ؟

هزّ (فارس) كتفيه ، وقال :

ـ لدينا قاعدة تقول : « العفو عند المقدرة » .

ارتسمت ابتسامة عجيبة على شفتى (كريستوبال) ، وهو يقول :

ـ من حسن الحظ أن هذه القاعدة تقتصر عليكم أيها العرب .

لم يفهم (فارس) ، للوهلة الأولى ، ما يعنيه (كريستوبال) ، ثم انتبه بغتة إلى تلك البريق الظافر ، المطلّ من عينى خصمه ، فاستدار بسرعة ، مع صيحة (كريستوبال) :

ـ أريده حيًّا .

ولمح (فارس) الجندى القشتالى ، الذى تسلّل خلفه ..

لمحه لحظة واحدة ، قبل أن يهوى مقبض سيف القشتالى على مؤخرة عنقه فى قوة ..

ومادت الأرض تحت قدمى (فارس) ، وأظلمت الدنيا أمام عينيه ، ثم هوى فاقد الوعى ، تحت قدمى (كريستوبال) ..

وبين أعدى أعدائه ..

* * *



٦ ـ الأسير ..

« لا .. لا يا (فارس) .. » .

هبّ (مهاب) من رقاده ، وهو يطلق تلك الصيحة ، وتصبّب عرق غزير على وجهه ، والشيخ يربّت على كتفه ، ويحاول إعادته إلى فراشه ، قائلًا :

ـ اهدأ يا (مهاب) .. أهدأ يا ولدى .. كل شىء على ما يرام .. اهدأ .

زاغت عينا (مهاب) ، وهو يتطلّع حوله ، قبل أن يقول فى ضعف :

ـ أين أنا ؟.. لماذا أعادونى إلى المعسكر ؟

قال الشيخ ، وهو يضع كمادة باردة على جبهته :

ـ أنت مصاب ، وتحتاج إلى عناية خاصة ، بعد ما فقدته من دماء .

لهث (مهاب) ، وكأنما يعدو فى طريق طويل ، وقال :

ـ ولكن (فارس) .. (فارس) سيذهب وحده إلى هناك .. إلى (قرطاجنة) .

تنهّد الشيخ ، وقال :

ـ هذا ما حتمته الظروف يا ولدى .. هناك شىء ما ،

يحدث هناك ، فى (قرطاجنة) ، وينبغى أن نعلم ماهيته ، وإلا فقدنا كل ما تبقى لنا من (الأندلس) ..

أغلق (مهاب) عينيه فى تهالك ، وهو يغمغم :

ـ ولكنه وحده .. والخطر بالغ ..

قلب الشيخ كفه ، قائلًا :

ـ وما البديل ؟!

ثم أبدل الكمادة ، التى ارتفعت حرارتها ، بأخرى باردة ، وهو يستطرد :

ـ هذا قدر (فارس) يا (مهاب) .. كلانا يعلم هذا .. والده (رحمه الله) ، أراد له هذا .

همس (مهاب) ، فى ضعف شديد :

ـ ولكنه صغير السن ، و ...

تهاوت كلماته ، قبل أن يتم عبارته ، فبدت أشبه بهمهمة غير مفهومة ، قبل أن يسقط مرة أخرى فى غيبوبة عميقة ، فتمتم الشيخ :

ـ هذا قدره يا (مهاب) .

وبينما كان يبدل الكمادة ، راح قلبه يخفق فى قوة ، من أجل (فارس) ..

كان يتساءل فى قلق .. هل يمكنه أن يتمّ المهمة وحده ؟ هل يستطيع كشف السر الذى تحمله (قرطاجنة) ؟..

والسؤال الأهم .. هل يبقى ـ بعد كل هذا ـ على قيد الحياة ؟..

وخفق قلبه أكثر ، وهو يكرر السؤال الأخير فى أعماقه ..

هـل ؟..

★ ★ ★

ارتطمت كمية كبيرة من المياه بوجه (فارس) ، وتسلل بعضها إلى أنفه وفمه ، فسعل فى شدة ، وشعر بآلام شديدة فى رأسه ، وهو يفتح عينيه فى صعوبة ، وسمع صوتًا إلى جواره ، يقول فى سخرية شامتة :

ـ حان الوقت لتستعيد وعيك أيها العربى .. تكفيك ثمان ساعات كاملة ..

ولم يكد صاحب الصوت يتم عبارته ، حتى ارتطمت كمية أخرى من المياه بوجه (فارس) ، فنفض رأسه فى قوة ، وسمع صاحب الصوت يقول فى غضب :

ـ حذار أيها العربى الأحمق .. إنك تنثر المياه على ثوبى .

رفع (فارس) رأسه ، وأغلق عينيه فى قوة ، فى محاولة للسيطرة على ذلك الصداع العنيف ، الذى يرتج له رأسه ارتجاجًا ، ثم مسح وجهه بكفيه ، قبل أن يفتح عينيه ، ويتطلّع إلى صاحب الصوت فى صمت ..

كان المتحدث هو (كريستوبال) ، الذى ابتسم فى ظفر شامت ، وهو يداعب خنجره الموضوع فوق مائدة صغيرة مجاورة ، وقال لرجاله الخمسة ، الذين يحيطـون بـ (فارس) :

ـ انظروا أيها السادة .. لقد استيقظ .. إنه يفعل مثلما نفعل .

قال (فارس) بسرعة :

ـ مطلقًا .. أنا أفعل مثلما يفعل الآدميون .

انعقد حاجبا (كريستوبال) فى غضب ، فى حين هرش أحد رجاله رأسه ، وهو يسأل فى حيرة :

ـ ما الذى يعنيه ؟!

تجاهل (كريستوبال) سؤال الرجل ، وهو يقول لـ (فارس) :

ـ ما الذى تحاول أن تثبته أيها العربى ؟.. لقد خسرت معركتك بالفعل ، ولا داعى للتظاهر بالعكس .

شد (فارس) عضلاته ، وهو يقول :

ـ ما دمت على قيد الحياة ، فالمعركة لم تنته بعد أيها البرتغالى .

مال (كريستوبال) إلى الأمام بحركة حادة ، وهو يقول :

ـ إنها مسألة وقت فحسب .. لن تبقى على قيد الحياة طويلًا أيها العربى .. لا أنت ، ولا عرب (الأندلس) كلهم .. بعد يومين أو ثلاثة على الأكثر سيهبط دون (فرانشسكو) بجيش القشتاليين على سواحلكم ، ويسحقكم سحقًا ..

انتبهت كل حواس (فارس)، مع حديث (كريستوبال)، وقفز سؤال عنيف إلى أعماقه ..

إذن فهذا هو سر (قرطاجنّة) !..

لقد جمعوا نصف جيشهم هنا ، ليحمله أسطولهم إلى سواحل مملكة (غرناطة) !..

وسرى توتر عنيف فى كل خلية من جسد (فارس) ..

لقد عرف السر ..

ولكن بمَ يفيد هذا ؟..

إنه أسير فى قبضة القشتاليين ، وربما يموت السر معه بعد قليل ..

ما لم ..

« من يعمل معك هنا ؟.. » .

قطع سؤال (كريستوبال) تواصل أفكاره ، فرفع عينيه إليه ، قائلًا :

ـ ماذا تعنى ؟

لوّح (كريستوبال) بخنجره ، وقال :

ـ السؤال أكثر وضوحًا من أن تتظاهر بعدم فهمه أيها العربى .. من المؤكد أنك لم تأت إلى (قرطاجنة) بالمصادفة البحتة .. هناك جاسوس لكم هنا ، هو الذى قادك إلى هنا .. أليس كذلك ؟

هزّ (فارس) كتفيه ، وقال :

ـ ربّما !

هبّ (كريستوبال) من مقعده ، صارخًا :

ـ أجب أيها العربى القذر .

قال (فارس) فى صرامة :

ـ لا يوجد عربى قذر أيها الحقير .

انحنى (كريستوبال) نحوه ، وجرح عنقه بطرف خنجره ، وهو يقول فى حدة :

ـ أتظن نفسك ذكيًا ؟!.. محاولتك الإنكار هذه لن تؤدى إلا لمصرعك .. ولن يكون ذلك عسيرًا .. سنغرس سيوفنا فى قلبك ، ونلقى بك من هذه النافذة ، من ارتفاع طابقين ، لندق عنقك على أرض (قرطاجنة) .. هل تفهم هذا ؟

ألقى (فارس) نظرة سريعة على النافذة ، المغلقة بزجاج ملوّن ، يحوى نقوشًا أندلسية عربية ، وقال :

ـ نعم .. أفهم هذا .

كانت الشمس قد أشرقت ، وصنع ضوؤها مع زجاج النافذة الملوّن مشهدًا رائعًا ، ولكن أحدًا لم يهتم به ، و (كريستوبال) يعود إلى مقعده ، قائلًا :

ـ عظيم .. مادمت قد فهمت هذا ، فالطريق لم يعد طويلًا كما كان .. إنك تعترف بوجود شريك لك هنا إذن .. كيف كنت تتصل به ؟

رفع (فارس) إصبعه إلى شفتيه ، وهو يقول :

ـ هكـذا .

وانطلق من فمه صفير متقطع طويل ، جعل الجميع يحدقون فيه بدهشة بالغة ، قبل أن يسأله (كريستوبال) فى عصبية :

ـ أكنت تتصل به بصفير كهذا ؟.. هل تسخر منا يا فتى ؟

هزّ (فارس) كتفيه ، وقال فى هدوء :

ـ لقد أردت الحقيقة .. هذا هو الأسلوب ، الذى أتصل به بشريكى الوحيد هنا .

انعقد حاجبا (كريستوبال) فى عصبية شديدة ، وهو يقول :

ـ اسمع أيها العربى .. أنا أكره من يسخرون منى .

قال (فارس) فى هدوء :

ـ وأنا أيضًا .

صرخ (كريستوبال) :

ـ من الواضح أنك لست مستعدًا للتعاون معنا .

امتزجت صرخته بصهيل الجياد فى الخارج ، إيذانًا ببدء الحركة فى المدينة ، مع مشرق الشمس ، وقال أحد رجاله ، وهو يستلّ سيفه :

ـ هل أقطع رقبته ؟

لوّح (كريستوبال) بذراعه فى حدة ، قائلًا :

ـ لن أمنحه هذا الشرف .

قال (فارس) ساخرًا :

ـ شرف الموت على أيدى أوغاد مثلكم ؟!

ضمّ (كريستوبال) قبضته ، وهو يقول :

ـ بل سنمزقه إربًا .. سنبتر أطرافه ، بعد أن نقطع أصابعه واحدًا بعد الآخر ، ثم نفقأ عينيه ، ونقطع أذنيه ..

قاطعه (فارس) :

ـ يا لك من برتغالى مرهف الحس !

صاح (كريستوبال) فى وجهه :

ـ وهل تعلم بِمَ سنفعل كل هذا ؟.. بسيفك الفضى أيها المغرور .

قالها ، وهو يبرز سيف (فارس) الفضى ، فتطلّع إليه (فارس) فى هدوء ، وقال :

ـ أعد إلىّ سيفى .

رفع (كريستوبال) السيف ، وهو يهبّ من مقعده ، هاتفًا :

ـ هل تريد سيفك ؟.. حسنًا أيها العربى .. خذه فى رأسك مباشرة .

وهوى بالسيف على رأس (فارس) ..

ولكن فجأة ، تحرّك (فارس) ..

لقد مال جانبًا ، وترك السيف يهوى على المقعد ، وينغرس فى قمته ، ثم اندفع إلى الأمام ، وكال لـ (كريستوبال) لكمة كالقنبلة ، وهو يقول :

ـ تذكّر أننى طلبته أوّلًا بلهجة مهذّبة .

تراجع (كريستوبال) مع اللكمة ، وسقط على مقعده ثانية ، فى حين استلّ رجاله الخمسة سيوفهم بحركة سريعة ، ولكن (فارس) استطرد :

ـ دعونا ننتقل إذن إلى المرحلة الثالثة .

وبحركة بارعة سريعة ، اختطف سيفه ، وانتزع نصله من المقعد ، وهو يصد به سيف أحد الرجال الخمسة ..

واندفعت خمسة سيوف نحو (فارس)، و(كريستوبال) يصرخ ثائرا :

ـ اقتلوه .. لم أعد بحاجة إليه .

وكال لـ (كريستوبال) لكمة كالقنبلة ، وهو يقول :

ـ تذكر أننى طلبت أولاً بلهجة مهذبة ..

تراجع (فارس) أمام السيوف الخمسة ، التى تلاحمت مع سيفه فى قوة وشراسة ، وراح يقى جسده الطعنات والضربات ، حتى اقترب من النافذة ، فصاح :

ـ فليكن أيها السادة .. سأنصرف الآن .. فقد سئمت قتالكم .

قالها ووثب نحو النافذة ، وحطَّم زجاجها الملوَّن ، وهوى جسده خارجها ..

هوى من الطابق الثانى .

★ ★ ★



٧ ـ الرمــح ..!

انتهى القبطان من إجراء حساباته المعقَّدة ، ورفع عينيه إلى (فرانشسكو) ، قائلًا :

ـ أمامنا يوم واحد، ونصل إلى سواحل مملكة (غرناطة) .

مطّ (فرانشسكو) شفتيه ، وقال :

ـ يا له من وقت طويل !

ألقى القبطان ريشته فوق أوراقه فى حنق ، وقال فى عصبية :

ـ كان يمكن أن يكون أقصر من ذلك بكثير ، لو أنك تصارحنى بما فى نفسك .. إنك تسند إلىّ مهمة قيادة أسطول كامل ، كما يقود الأعمى قافلة من الحمير ، دون أن يعلم أو يعلموا وجهتهم !

أطلق (فرانشسكو) ضحكة قصيرة للتشبيه ، وقال :

ـ أحيانًا تقتضى السرية هذا .

صاح القبطان :

ـ أية سرية ؟!.. أنا قبطان الأسطول ، والمفروض أننى موضع ثقة مولاى (فرناندو) ومولاتى (إيزابيلا) ، ونحن فى عرض البحر الآن ، فما الذى تعنيه السرية هنا ؟

هزّ (فرانشسكو) كتفيه ، وقال محاولًا الهروب من الموضوع :

ـ لماذا تستغرق كل هذا الوقت فى حساباتك البحرية ؟

وقع القبطان فى الفخ ، وأجاب بسرعة :

ـ لأننى أستخدم أسلوب الحساب العشوائى ، أما العرب ، فيستخدمون جهازًا يعرف باسم (الاسطرلاب)(*) ، يجعل مهمتهم أكثر سهولة ، ويساعدهم على ...

وانتبه فجأة إلى مناورة (فرانشسكو) ، فاحتقن وجهه ، وقال فى غضب :

ـ هل تمارس معى لعبة الخداع ؟

تطلّع إليه (فرانشسكو) لحظة ، ثم قال :

ـ لا .. لا أعتقد أن الأمر يستحق هذا .

ثم اعتدل ، مستطردًا فى سرعة :

ـ لقد سبق أن أخبرتك أننا سنهبط على سواحل مملكة (غرناطة) .

(*) الاسطرلاب : آلة قديمة لقياس ارتفاعات الأجرام السماوية ، وتحديد المسارات البحرية ، وضع فكرته (هيبارخوس) و (أبولونيوس) ، وصنعه العربى (إبراهيم الفزارى) ، الذى توفى عام (٧٧٧م) ، ولقد برع العرب فى استخدامه وتطويره ، بحيث صار أحد أجهزتهم الأساسية ، واشتهروا ببراعتهم هذه فى العالم كله ، حتى العصور الحديثة .

قال القبطان فى عصبية :

- نعم .. ولكنك لم تحدِّد بعد منطقة الهبوط .

أشار إليه (فرانشسكو) ، وهو يقول :

- أين كنت ستهبط ، لو أنك فى مكانى ؟

فرد القبطان خريطة ملاحية أمامه ، تبدو عليها سواحل مملكة (غرناطة) ، وأشار إلى بقعة عليها ، قائلًا :

- لو أننى أردت اختصار الوقت ، والقيام بهجوم مباشر ، فسأسير من (قرطاجنة) بمحاذاة الساحل غربًا ، حتى أهبط فى (المنكب) ، وبعد احتلال الميناء ، يمكننى التقدم شمالًا ، حتى أبلغ (غرناطة) مباشرة .

شبك (فرانشسكو) أصابع كفيه أمام وجهه ، وقال :

- هذا هو الإجراء المنطقى ، بالنسبة لأى قبطان متمرس .

أجابه القبطان فى زهو :

- بالطبع .

لوَّح (فرانشسكو) بكفه ، وقال فى حزم :

- لذا فسنتجاهل هذه الخطة تمامًا .

احتقن وجه القبطان بشدة ، وهو يقول :

- تتجاهلها ؟!

أجابه (فرانشسكو) :

- بالطبع ؛ فلو شكَّ العرب فى أننا نخطِّط لغزو بحرى ، فسيستنتجون خط السير هذا على الفور ؛ لذا فمن الضرورى أن نفاجئهم بهجوم بحرى لا يتوقعونه قط .

ظلَّ وجه القبطان على احتقانه ، وهو يشعر وكأن (فرانشسكو) قد أهانه بقوله ، ثم قال فى عصبية :

- وما هذا الهجوم الغير متوقَّع ؟

برقت عينا (فرانشسكو) ، وهو يلوِّح بسبَّابته ، قائلًا :

- الرمح .

لم يفهم القبطان ما يعنيه هذا القول ، فردَّد فى حيرة :

- الرمح ؟!

أجابه (فرانشسكو) فى حماس :

- نعم .. لن نهبط على ساحل (المنكب) ، بل سنتوغَّل فى عرض البحر ، كما نفعل الآن ، حتى نصبح بمحاذاة (مالقة) تمامًا ، وعندئذ سنستدير نحو الشمال ، ونتجه كالرمح إلى قلب (مالقة) ، وعندما نصبح على مدى الرؤية ، سنتوقَّف حتى يحل الظلام ، ثم ننقض عليها دون أن ترانا ، ونغرس رمحنا فى أعماقها .

ردد القبطان مبهورًا :
- (مالقة) !!.. الرمح !!..
وجلس لحظات صامتًا ، مبهوتًا ، مفغور الفاه ، ثم لم يلبث أن هبّ واقفًا ، وهو يقول فى حماس :
- سنيور (فرانشسكو) .. يبدو أننى لم أقدّرك حق قدرك .
ثم صافحه فى حرارة ، مستطردًا :
- أهنئك .. لقد وضعت بنفسك اللبنة الأولى ، فى نهاية حكم العرب فى (الأندلس) .
وهنا علت شفتى (فرانشسكو) ابتسامة يندر أن تتكوّن على شفتى رجل واحد ..
ابتسامة تجمع ما بين الظفر ، والثقة ، والقوة ، والاستهتار ، والغرور ، و ...
والشر ..

* * *

كان كل شىء يسير على ما يرام ، فى طرقات (قرطاجنة) ، بعد أن أشرقت الشمس ، وخرج الناس لقضاء حوائجهم ، وانتشروا فى الأسواق ، وراحوا يبيعون ويشترون ، وقد أثار اهتمامهم وانتباههم ، ذلك الجواد الأبيض الشاهق ، الذى راح يجوب الطرقات فى

صمت ، وهو يدير عينيه فيما حوله ، وكأنه يبحث عن شىء ما ، أو شخص ما ، وفوق ظهره العارى من السروج ، رُبطت جعبة صغيرة ، أغرت أحد اللصوص بسرقتها ، ولكنه لم يكد يمد يده إليها ، حتى استدار إليه الجواد بحركة حادة ، وأطلق صهيلًا مزمجرًا ، وهو يضرب الأرض بحوافره فى قوة ، جعلت اللص يتراجع مذعورًا ، ثم يبتعد فى سرعة ، ويختفى بين المارة ، وقد قنع من الغنيمة بالإياب ..
أما الجواد ، فقد واصل طريقه ، والناس يتابعونه بأبصارهم ، حتى انطلق فجأة صفير متقطع طويل ، من مبنى بعيد ، فأطلق الجواد صهيلًا ، وارتفع بنصفه العلوى ، ليضرب الهواء بقائمتيه فى قوة ، ثم انطلق يعدو نحو مصدر الصفير ..
وقبل أن يبلغ الجواد المبنى تمامًا ، شهق الناس فى دهشة ، عندما شاهدوا (فارس) يثب عبر النافذة ..
أما المشهد التالى ، فقد حبس أنفاسهم تمامًا ..
لقد هوى جسد (فارس) ، من الطابق الثانى ، وهو يحمل سيفه الفضى ، وانطلق (رفيق) بأقصى سرعته نحوه ..
وتفجّر الذهول فى نفوس الجميع ، مع ذلك التناسق

المدهش ، عندما بلغ (رفيق) موضع سقوط فارسه فى اللحظة المناسبة بالضبط ، ليستقر (فارس) على متنه ، ويمسك معرفته بقوة ، وهو يهتف :

ـ أحسنت يا صديقى .. انطلق .

وبلكزة من كعبى (فارس) ، انطلق رفيق كالصاروخ ، فى طرقات (قرطاجنة) ، و (فارس) يلوّح بسيفه فى وجوه جنود (قشتالة) ، هاتفًا :

ـ ابتعدوا .. سنعود إلى الوطن .

شاهد (كريستوبال) ما حدث ، عبر النافذة المحطمة ، فهتف :

ـ الحقوا به .. لو نجح فى الفرار ستتحطم الخطة كلها .. سنخسر المعركة .

أشعلت عبارته حماسة الجميع ، فانطلقوا معه إلى جيادهم ؛ ليطاردوا (فارس) ، الذى انطلق بجواده نحو أبواب المدينة ، ولكن قائد الجنود صاح :

ـ أغلقوا الأبواب .. امنعوا هذا العربى من الخروج ..

كان (فارس) ينطلق بأقصى سرعته ، على متن (رفيق) ، ولكن الجنود كانوا يغلقون الأبواب بسرعة أكبر ، فهتف هو :

ـ يبدو أننا لن نجد مخرجًا طبيعيًا من هنا يا (رفيق) .

صهل (رفيق) ، وقد انتقل توتر فارسه إليه ، واستدار مع توجيهات (فارس) ، وانطلق مبتعدًا عن الأبواب ..

ولكن فجأة ، وجد (فارس) نفسه فى مواجهة (كريستوبال) ورجاله الخمسة ، الذين استلّوا سيوفهم فور رؤيته ، وصرخوا صرخات قتالية مخيفة ، و (كريستوبال) يصرخ فيهم :

ـ ها هو ذا .. اقتلوه .

انقضّ الرجال الخمسة على (فارس) ، ولكن هذا الأخير اندفع بجواده نحوهم فى بسالة ، وهو يصيح :

ـ هيا يا (رفيق) .. سنريهم ما الذى تعنيه كلمة (فارس عربى) !

أربكت انقضاضته مهاجميه ، الذين لم يتوقعوا رد فعل انتحارى كهذا ، فتراجعوا فى دهشة ، و (كريستوبال) يقول فى دهشة عارمة :

ـ ما الذى يفعله هذا المجنون ؟

وقبل أن يتلاشى أثر المفاجأة ، كان (فارس) يضرب أحزمة السروج بسيفه ، ويندفع بجواده بين الجياد ، التى أطلقت صهيلًا مذعورة ، وسقط عنها فرسانها ، مع سقوط السروج ، فى حين مرق (فارس) بأقصى سرعته إلى جوار (كريستوبال) ، الذى صرخ :

- إنه يهرب .. أوقفوه ..

وفى هذه المرة ، انطلق (كريستوبال) خلف (فارس) ، مع فريق ضخم من فرسان (قشتالة) ..

وكانت مطاردة رهيبة ، وسط طرقات (قرطاجنة) ، أثبت خلالها (رفيق) أنه جواد عربى أصيل ، وهو يتجاوز الجميع ، ويعبر كل ما يعترض طريقه ..

وأدرك (كريستوبال) أن فرسانه كلهم لن يمكنهم اللحاق بهذا الفارس ، فتفتق ذهنه عن صيحته :

- أطلقوا سهامكم نحوه .

لم يكن من الجيد أن تنطلق السهام على نحو عشوائى ، وسط أسواق (قرطاجنة) ، ولكن القشتاليين لم يتورّعوا عن إطلاق سهامهم ، التى تجاوز معظمها (فارس) ، وانغرس فى أجساد المارة والبائعين ، فتعالى الصراخ ، وسالت الدماء أنهارًا ..

ولم تخطئ السهام كلها (فارس) ..

لقد شعر بأحدها ينغرس فى كتفه الأيمن ، والآخر فى فخذه ، كما استقر ثالث فى فخذ (رفيق) ، ولكنه لم يتوقف عن الانطلاق بأقصى سرعته ، حتى بلغ البحر ، فجذب (فارس) معرفته إلى اليمين ، وراح ينطلق به بمحاذاة الشاطئ ، و (كريستوبال) وفرسان قشتالة يعدون خلفه ، ولهث هو فى قوة ، وهو يغمغم :

- اجر يا (رفيق) .. أعلم أنك تنطلق بأقصى سرعتك ، ولكنهم سيقتربون منا ، إن آجلا أو عاجلا .. وصدقنى يا صديقى .. أنا أيضًا أشعر بآلام بالغة ، من السهمين المغروسين بجسدى ، عندما تنطلق أنت بسرعة ، ولكن لا يمكننا التوقف الآن .. مستقبل (الأندلس) كله يتوقف على نجاحنا .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى لاحت له منطقة صخرية من بعيد ، فاستطرد :

- انظر يا (رفيق) .. لو أمكننا بلوغ هذه الصخور ، فسنسبقهم بإذن الله .. فقد اعتدنا أنا وأنت العدو بين الصخور ، بالقرب من المعسكر ، ولكن من المؤكّد أن جيادهم ليست مؤهلة لذلك .

قالها ، وراح يلكز بطن (رفيق) بكعبيه فى قوة ، و (رفيق) يقاوم آلام فخذه ، ويحثّ الخطا ..

ولكن (كريستوبال) انتبه إلى ما يحاوله (فارس) ، فقال لرجاله :

- إنه يحاول بلوغ المنطقة الصخرية .. لو نجح فى هذا فسيتفوّق علينا .

أجابه قائد الفرسان :

- ربما كانت لدينا وسيلة للحيلولة بينه وبين هذا .

ثم أشار إلى ثلاثة من رجاله ، مستطردًا :
- استخدموا رماحكم .
كان كل من الرجال الثلاثة يمتطى جوادًا شديد القوة ، يحمل رمحًا ضخمًا ، فرفع أولهم رمحه ، وألقاه بكل قوته نحو (فارس) ..
ولثوان ، خُيِّل لـ (كريستوبال) أن الرمح سينغرز فى ظهر (فارس) مباشرة ، إلا أن هذا الأخير وثب بجواده إلى الأمام ، فى اللحظة الأخيرة ، ليتسلَّق المرتفع الصخرى ، فأخطأه الرمح ببوصة أو بوصتين ، فى حين راح (رفيق) يعدو فوق المرتفع الصخرى المائل فى تمكّن ، أثار دهشة القشتاليين ، فهتف أحدهم :
- عجبًا !.. جواده يتسلَّق الصخور ، كما لو كان يسير على أرض ممهّدة .
أما قائد القشتاليين ، فقد انعقد حاجباه فى حنق ، وأشار إلى الرجلين الباقيين إشارة مزدوجة ، فترجَّل أحدهما عن جواده ، وحمل رمحه ، وراح يتسلَّق المرتفع الصخرى من الجانب ، فى حين اندفع الثانى بجواده نحو المرتفع ، وألقى رمحه نحو (فارس) ..
وفى هذه المرة ، مسّ نصل الرمح ذراع (فارس)

اليسرى ، فمزّق ثوبه ، وجرح ذراعه بشدة ، قبل أن يواصل طريقه ، ويتحطَّم فوق الصخور ..
ولم يتوقَّف (فارس) ..
لقد واصل عدوه متسلقًا الصخور مع (رفيق) ، على نحو أصاب (كريستوبال) بدهشة بالغة ، وجعله يهتف :
- أى شيطان هذا ؟
غمغم قائد القشتاليين :
- من الواضح أن جواده مدرَّب بشدة على التعامل مع البيئة الصخرية ، بكل ما بها من مرتفعات ومنخفضات .
قال (كريستوبال) فى عصبية :
- وما الذى يعنيه هذا ؟.. ألن نلحق به ؟
مطَّ القشتالى شفتيه ، وقال :
- ليس بوساطة الخيول بالتأكيد .
قال (كريستوبال) فى حدة :
- إذن فقد فقدناه .
ابتسم القشتالى ، وأشار إلى المرتفع الصخرى ، قائلًا :
- ليس بعد .
استدار (كريستوبال) فى سرعة ، ليرى ما يشير إليه القشتالى ، ثم برقت عيناه ، عندما وقع بصره على حامل

الرمح الأخير ، الذى اقترب من قمة المرتفع ، فى نفس الوقت الذى بلغ فيه (فارس) القمة ، وهتف :

- آه .. فهمت .

أما (فارس) ، فقد بلغ بجواده قمة المرتفع ، ورأى القشتاليين يحيطون به من كل جانب ، عند السفح ، فجذب معرفة (رفيق) ، وهو يقول :

- لم يعد أمامنا بديل يا صديقى .. سنقفز إلى البحر .

ولكز بطن الجواد بكعبيه ، هاتفًا :

- انطلق .

وفى نفس اللحظة ، التى انطلق فيها (رفيق) ، برز حامل الرمح الثالث ، وأسرع يسدد رمحه إلى (فارس) ، الذى وثب بالجواد خارج المرتفع ، وبدأ يهبط به نحو البحر ، عندما انطلق الرمح الثالث ، و ...

وأصاب الهدف .

* * *

٨ - دماء أندلسية ..

انعقد حاجبا الملك (فرناندو) فى توتر شديد ، وهو يطالع الرسالة التى وصلته منذ لحظات ، بوساطة واحدة من حمامه الزاجل ، وأطلق من أعماق صدره زفرة عصبية ، جعلت الملكة (إيزابيلا) تسأله :

- من أين هذه الرسالة ؟

ألقى عليها نظرة طويلة ، قبل أن يقول فى شىء من الحدة :

- لقد اخترت صيغة السؤال المناسبة يا ملكة (قشتالة) و (ليون) .. هذه هى أسوأ نقطة فى الأمر كله .. المكان الذى أتت منه الرسالة .

ثم مال نحوها ، مستطردًا فى سخط :

- لقد أتت من (قرطاجنة) .

انعقد حاجباها فى توتر ، وهى تقول :

- هل وصل العرب إلى هناك ؟

لوّح الملك بكفه فى حدة ، وهو يقول :

- يا له من قول !!.. كلا يا ملكة الملكات .. العرب لم يصلوا إلى (قرطاجنة) ، بل هو عربى واحد .. فارسهم الأبيض وصل إلى هناك ، ولكن بدون ملابسه المعتادة .

قالت فى دهشة :
- كيف عرفت إذن أنه فارسهم الأبيض ؟
عاد يلوّح بكفه ، قائلًا :
- ليس هذا هو المهم .. المهم أن وصول ذلك الفارس إلى (قرطاجنة) ، يعنى أن العرب لديهم شكوك بشأن الميناء ، وهذا سيقودهم حتمًا إلى كشف السر ، قبل أن يشن (فرانشسكو) هجومه .
انعقد حاجباها أكثر ، وهى تقول :
- يا للخسارة !
ثم اعتدلت فجأة مستطردة :
- ولكن هذا لو نجح الفارس العربى فى الخروج من المدينة حيًا .
حدّق (فرناندو) فى وجهها لحظة بدهشة ، ثم لم يلبث أن انفجر ضاحكًا ، وهو يقول :
- ربّاه !.. ماذا أصاب (إيزابيلا) الورعة ؟!.. لقد صارت أكثر دموية منى !
قالت (إيزابيلا) فى عصبية :
- كل شىء يهون ، من أجل (قشتالة).
قهقه (فرناندو) مرة أخرى ، وهو يهتف :
- بالطبع .. كل شىء يهون .

ثم مال نحوها بغتة ، مستطردًا فى خبث :
- من أجل النصر .
أشاحت بوجهها لتتجاهله ، قائلة :
- لو أن ذلك الفارس لقى مصرعه فى (قرطاجنة) ، فلن يصل السر إلى العرب ، وهكذا يحقّق (فرانشسكو) مباغتته المنشودة .
صفق الملك بكفيه ، وهو يقول :
- هذا صحيح .
دخل أحد رجاله بعد تصفيقه مباشرة ، فأشار إليه ، قائلًا بلهجة ملكية آمرة :
- ارسل فورًا إلى حاكم (قرطاجنة) ، وقل له : إن (فرناندو) يريد جثة ذلك الفارس العربى .. هل فهمت .. لن أكتفى بسماع خبر مصرعه .. أريد جثته .
انحنى الرجل فى طاعة ، وأسرع ليرسل الرسالة ، فى حين التفت الملك إلى الملكة ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة واسعة ، وهو يقول :
- هل رأيت ؟!.. كل شىء يهون من أجل استعادة (الأندلس) .. كل شىء .
وعاد يقهقه عاليًا ..

★ ★ ★

كان (فارس) يثب بجواده ، من فوق المرتفع الصخرى ، عندما شعر بلسان من النار يخترق ظهره ، فأطلق صرخة ألم مكتومة ، وهوى يهوى بجواده نحو البحر ، وشعر بجسده يرتطم بالماء البارد ، وسمع صهيل (رفيق) ، قبل أن يغوصا معًا بعد الشىء ، ثم يصعدان إلى السطح مرة أخرى ..

وبكل ما يملك من قوة ، حاول (فارس) أن يقاوم آلامه ، وتلك الغيبوبة العنيدة ، التى راحت تحيط برأسه رويدًا رويدًا ..

وعلى الرغم من السحابة الضبابية ، التى تحيط ببصره ، رأى دائرة من الدماء تحيط به ، وتنتشر فى بطء من حوله ، فوق سطح الماء ..

دماء أندلسية طاهرة ..

دماء (فارس) ..

أما (رفيق) ، فقد صعد بحمله إلى سطح البحر ، وراح يسبح فى قوة ، مبتعدًا عن المنطقة ، التى يحيط بها القشتاليون ..

ورأى (كريستوبال) هذا المشهد ، فهتف :

- رباه !.. انظروا .. ذلك الجواد يسبح فى سرعة .



كان (فارس) يثب بجواده ، من فوق المرتفع الصخرى ، عندما شعر بلسان من النار يخترق ظهره

رفع قائد القشتاليين حاجبيه ، قائلا :

ـ جواد يسبح فى مهارة ، ويتسلق المرتفعات فى براعة ، ويجيد الجرى والمناورة !!.. يا للعجب !.. إننى لأدفع نصف حياتى ، فى سبيل الحصول على جواد كهذا .

صاح (كريستوبال) :

ـ الحق به إذن ، قبل أن يبتعد بحمله كثيرًا .

هز القشتالى رأسه فى أسف ، وقال :

ـ لو أننى أستطيع ، لما ترددت لحظة واحدة ، ولكن هذا الجواد يسبح بسرعة كبيرة ، ويتجه نحو صخور الغرب .. لن نلحق به أبدًا ، مهما فعلنا ..

قال (كريستوبال) فى عصبية :

ـ وماذا عن العربى ؟.. إنه يحمله معه ؟

مط القشتالى ، شفتيه ، وقال :

ـ أى عربى ؟!.. ألا تجيد الرؤية يا رجل ؟!.. ألم تر ذلك الرمح المكسور ، المغروس فى ظهر ذلك العربى ، الملقى جثة هامدة على متن جواده ؟.. ألم تلحظ الدماء الغزيرة ، التى تغرق ظهره .. إنه رجل ميت يا هذا .. رجل لم يعد هناك ما تخشاه تجاهه .

صمت (كريستوبال) لحظة ، وبدا وكأنه قد اقتنع ،

حتى أنه هم بجذب عنان جواده ، للعودة إلى المدينة ، لولا أن ظهر مبعوث الحاكم فجأة ، وهو يهتف :

ـ سنيور (كريستوبال) .. سنيور (كريستوبال) .

التفت إليه (كريستوبال) ، وسأله :

ـ ماذا هناك يا رجل ؟

ناوله المبعوث ورقة مطوية ، وهو يقول :

ـ رسالة عاجلة للغاية من الحاكم .

التقط (كريستوبال) الرسالة ، وراقبه الجميع وهو يفضها ، ويقرأها فى عناية ، قبل أن يقول فى حسم :

ـ سنواصل المطاردة .

سأله قائد القشتاليين فى توتر :

ـ هل تصر على هذا ؟

لوح (كريستوبال) بالورقة فى وجهه ، قائلا :

ـ لست أنا من يصر على هذا ، بل الملك نفسه .. الملك (فرناندو) يريد جثة ذلك الفارس العربى .

عقد القشتالى حاجبيه فى شدة ، قبل أن يقول :

ـ لا أحد يمكنه مخالفة الأوامر الملكية .

ثم رفع يده ، وهتف :

ـ هيا يا رجال .. سنواصل المطاردة ، حتى نعود بجثة العربى .

وانطلق (كريستوبال) مع فريق القشتاليين ، ليدوروا حول المرتفع ..

وليستكملوا المطاردة ..

★ ★ ★

أطبقت تلك الغيبوبة رويدًا رويدًا ، على عقل (فارس) ، وهو يتشبث بمعرفة (رفيق) وكأنها آخر أمل فى النجاة ، فى حين راح الجواد يسبح بكل قوته ، بمحاذاة شاطىء (قرطاجنة) ، على الرغم من السهم المغروس فى فخذه ..

وفى تهالك ، غمغم (فارس) :

- يبدو أنها آخر مغامراتنا يا (رفيق) .

صهل الجواد فى توتر ، وكأنما فهم ما يقصده فارسه ، وحاول أن يزيد من سرعة سباحته ، و (فارس) يستطرد :

- هذا الرمح يؤلم للغاية يا صديقى ، والماء حولنا ما زال يحمل الكثير من دمائنا ، ولكن لا يمكننى انتزاع الرمح .

أطلق الجواد صهيلًا خافتًا آخر ، فتابع (فارس) :

- هذا ما علمنى إياه الشيخ .. فصل الرمح المغروس فى جسدى ، هو الذى يمنع الدماء من النزف ، ويبقينى حيًا حتى الآن ..

ثم تهالك رأسه على عنق الجواد ، مع إضافته :

- ولكنه مؤلم يا (رفيق) .. مؤلم للغاية .

واصل الجواد سباحته ، فى سرعة وصمت هذه المرة ، واستلقى (فارس) فوقه ، وهو يلتقط أنفاسه فى صعوبة ، ولكن أصابعه ظلّت مطبقة على معرفة الجواد فى استماتة ، على الرغم من أنه يكاد يكون فاقد الوعى ..

وأخيرًا ، عاد الجواد إلى الشاطىء ، وانطلق يعدو بكل قوته فوقه ، حاملًا فارسه المصاب ، الذى فقد وعيه بالفعل ، دون أن يتخلّى عن معرفة جواده ..

كانت هناك رابطة عجيبة ، تربط ما بين الفارس والجواد ..

رابطة تعجز عن وصفها عباراتنا العادية ..

كان كل منهما يفهم الآخر تمامًا ..

بل يقرأ أفكاره ..

وفى تلك اللحظة ، كان الجواد يدرك جيدًا ، أن فارسه فى النزع الأخير ، وأنه يحتاج إلى إسعاف سريع ، أو ...

أو يفقده إلى الأبد ..

ولم يكن الجواد يملك سوى أن يعدو بكل قوته ، مبتعدًا عن موطن الخطر ..

وهذا ما فعله ..

ولكن القشتاليين كانوا خلفه ..

ولم تمض دقائق ، حتى ظهر (كريستوبال) وفريق القشتاليين ، وهم ينطلقون بأقصى سرعتهم خلف الجواد ، وهتف (كريستوبال) :

- ها هو ذا .

أجابه قائد القشتاليين :

- يبدو لى أن العربى لم يلق مصرعه بعد ؛ فهو يتشبَّث بجواده جيدًا ، على الرغم من أنه يمتطيه دون سرج أو لجام .

انعقد حاجبا (كريستوبال) فى شدة ، وهو يقول :

- مستحيل !.. كيف يُمكن هذا ؟

ثم انتزع قوسه وسهمه ، مستطردًا :

- يبدو أنه يحتاج إلى ضربة أخرى .

أطلق سهمه بالفعل ، ولكنه لم يصب الهدف ، فصرخ غاضبًا :

- اللعنة !.. هل سيهزمنا فارس مصاب ، وجواد غبى ؟

قال القشتالى :

- غبى ؟!.. قل يا سنيور (كريستوبال) : ألا توجد جياد قط فى (البرتغال) ؟

هتف (كريستوبال) :

- أى قول أحمق هذا ؟

لوَّح القشتالى بيده ، وقال :

- قول من منا يا سنيور (كريستوبال) ؟.. هذا الجواد الذى يعدو أمامك ، يليق بملك ، وهأنتذا تصفه بالغباء .. ألا يعنى هذا أنك تجهل كل شىء عن الخيول .

صاح (كريستوبال) فى حنق :

- بل يعنى أنك مأفون أيها القشتالى .. ألا تدرك خطورة الموقف .. الملك يطالب بجثة العربى ، وأنت تتغزَّل فى جواده .

مطَّ القشتالى شفتيه ، وقال :

- من الواضح أننا لن نتفق قط أيها البرتغالى .

قال (كريستوبال) فى حدة :

- ليس المهم أن نتفق يا رجل .. المهم أن نحظى بجثة الفارس .

هتف القشتالى :

- لا تقلق أيها البرتغالى .. إننا نقترب منه .

وكان محقًّا فى قوله هذا ..

لقد أصاب الإرهاق (رفيق) ، الذى لم يحظ بقسط مناسب من النوم ، منذ ما يقرب من يومين ، ولم يعد يستطيع العدو بكامل طاقته ، وخاصة مع الألم الشديد ،

الذى يسببه السهم المغروس فى فخذه ، فى نفس الوقت الذى كانت فيه جياد القشتاليين قوية ، لم تبذل الكثير من طاقتها بعد ..

ثم أن (فارس) فقد قوته ، ولم يعد يتشبث بمعرفة (رفيق) ..

وسقط ..

سقط فجأة عن ظهر الجواد ، دون سابق إنذار ، واستلقى على وجهه ، فوق رمال (قرطاجنة) ، ورمح مكسور يرتفع من ظهره ..

ومع سقوطه ، توقف (رفيق) ، واستدار يواجه القشتاليين ، فى محاولة لمنعهم من النيل من فارسه ..

وعندما لم يعد يفصلهم أكثر من أمتار ثلاثة ، هتف قائد القشتاليين برجاله :

ـ قفوا .

توقف الجميع على الفور ، فصاح (كريستوبال) :

ـ لماذا طلبت منهم الوقوف ؟

أجابه القشتالى فى صرامة :

ـ لا مبرر للإسراع .. الفارس سقط ، والجواد توقف عن العدو .

كان (كريستوبال) يغلى غضبًا ، ولكنه حاول السيطرة على أعصابه ، وهو يقول :

ـ حسنًا .. أحضروا الفارس إذن .

عقد القشتالى حاجبيه ، وهو يتطلع إلى الجواد ، الذى أخذ يضرب الأرض بحوافره فى تحفز وتوتر ، ثم أشار لاثنين من رجاله ، قائلًا :

ـ أحضروا الفارس .

هبط الرجلان عن صهوة جواديهما ، وتقدما نحو (فارس) ، ولكن (رفيق) أطلق صهيلًا عاليًا ، واندفع نحو أحدهما ، يضربه برأسه فى عنف ، فألقاه بعيدًا ، مما جعل الآخر يصرخ مذعورًا :

ـ إنه جواد قاتل .

حاول أن يستل سيفه ، ولكن (رفيق) رفع قائمتيه ، وهوى بهما على صدره ، فأطلق الرجل صرخة ألم رهيبة ، وهو يسقط أرضًا ..

وفى إعجاب يقرب من الانبهار ، رفع قائد القشتاليين حاجبيه ، قائلًا :

ـ يا له من جواد !

حدق (كريستوبال) فى وجهه لحظة بدهشة واستنكار ، ثم صرخ وهو ينتزع قوسه وسهمه .

ـ فليذهب هذا الجواد اللعين إلى الجحيم .

وأطلق سهمه نحو (رفيق) ..

وبمنتهى الدقة .

* * *

٩ ـ الجـواد ..

عندما كان (رفيق) مهرًا صغيرًا ، أسند الشيخ مهمة تدريبه لـ (مهاب) ، الذى استنفر كل مهاراته وخبراته ، ليصنع من ذلك المهر جوادًا مقاتلًا ، لم ير التاريخ مثله قط ..

وطوال سنوات نموه ، راح (مهاب) يضع الجواد فى كل المواقف ، التى يمكن أن يتعرّض لها ، لو اشتد الوغى ..

وعندما تسلّم (فارس) (رفيق) ، أضاف إلى تدريباته عاملًا جديدًا ، يفوق كل ما منحه إياه (مهاب) ..

الحب ..

لقد أحبّ (فارس) جواده ، ومنحه الكثير من حنانه ورعايته ، حتى نشأت بينهما تلك الرابطة الفريدة ، التى جعلت الجواد يستجيب لتدريبات غير تقليدية ، أخضعه لها (فارس) ، فى رحلاتهم اليومية ..

ومن هذه التدريبات ، ما أطلق عليه (فارس) اسم : (القفز فوق الخطر) ..

ولقد أجاد (رفيق) هذه المهارة ، على نحو مدهش ..

وفى ذلك اليوم ، عندما أطلق (كريستوبال) سهمه نحو (رفيق) ، استعاد الجواد كل ما تعلّمه فى هذا الشأن .. وطبّقه على الفور ..

لقد رأى السهم ينطلق نحو صدره مباشرة ، فوثب وهو يطلق صهيله القوى ..

واتسعت العيون كلها فى ذهول ..

لقد تجاوز الجواد بقفزته السهم المنطلق نحوه ، ووثب فوقه بحركة مدهشة ، غاية فى البراعة والرشاقة ، حتى أن قائد القشتاليين هتف فى انبهار :

ـ يا للروعة !

ولم يكد يتمّ هتافه ، حتى كان (رفيق) قد هبط على قوائمه ، واندفع بغتة نحو (كريستوبال) ، الذى هتف مذعورًا :

ـ سيقتلنى .. الجواد سيقتلنى .

ولكن (رفيق) لم يضرب (كريستوبال) ، وإنما انقضّ على جواده ، وضربه برأسه فى صدره ، ثم أطلق صهيله فى وجهه ..

وجفل جواد (كريستوبال) ، وتراجع بحركة عنيفة ، أفقدت راكبه توازنه ، فهوى أرضًا ، وهو يطلق سبابًا ساخطًا ..

أما (رفيق) ، فقد انقضّ فى شجاعة نادرة على جياد القشتاليين ، التى تراجعت أمامه ، وكأنها تعترف له بالزعامة ، فصاح القائد ..

- استخدموا الحبال .. أريد هذا الجواد حيًا .

سحب كل منهم حبله ، وحاولوا إحاطة الجواد بحبالهم ، وهو يقاومهم فى استماتة ، والقائد يراقبه فى إعجاب ، متمتما :

- يا له من جواد !.. أى جواد آخر كان سيصاب بالذعر ، ويعدو مبتعدًا ، حتى ولو تخلّى عن فارسه ، أما هذا الجواد ، فهو يستميت للدفاع عن صاحبه ، حتى آخر رمق .

وهز رأسه مرة أخرى ، قبل أن يكرّر :

- يا له من جواد !

كان (رفيق) يقاتل فى استماتة بالفعل ، ولكن الحبال التى انطلقت نحوه فى أربع جهات ، أحاطت بعنقه ، ومنعته من الحركة ، فراح يطلق صهيلًا متصلًا ، ويرنو بعينيه إلى فارسه الملقى أرضًا ..

وفجأة ، استلّ (كريستوبال) سيفه ، واندفع نحو (رفيق) ، صارخًا :

- لن يبقى هذا الجواد على قيد الحياة قط .

وبكل قوته ، دفع السيف نحو صدر الجواد .. وفى موضع القلب تمامًا ..

★ ★ ★

ارتشف (مهاب) رشفة كبيرة من قدح الماء ، الذى أحضره له الشيخ ، ثم تنهّد وشرد ببصره بعيدًا ، وهو يقول :

- أشعر بقلق شديد على (فارس) .

غمغم الشيخ :

- وأنا أيضًا .

ثم تنهّد ، مستطردًا :

- ولكن ما باليد حيلة .. فارس هو الوحيد ، الذى يصلح لمثل هذه المهمة .

هزّ (مهاب) رأسه قليلًا ، قبل أن يقول :

- أعلم هذا .. لقد درّبته بنفسى ، وأنا خير من يدرك قدراته .. صحيح أنه صغير السن ، ولكن خبرته تتجاوز خبرة العديدين .

قال الشيخ :

- ولكن تنقصه الحكمة .

قال (مهاب) :

- سيكتسبها مع الزمن .

تطلّع الشيخ إلى السهل الممتد أمامه ، قبل أن يقول :
ـ هذا لو كان هناك وقت لهذا .
التفت إليه (مهاب) فى دهشة ، وسأله فى قلق :
ـ ماذا تعنى يا سيّدى ؟
أجابه الشيخ فى أسى :
ـ من يحيا مثل (فارس) ، لا يعمر طويلًا يا (مهاب) .
بُهت (مُهاب) للقول ، وهتف :
ـ ماذا تقول يا سيّدى ؟!
خفض الشيخ عينيه ، وهو يقول :
ـ إنها الحقيقة يا ولدى .. وأنا أعلمها منذ اللحظة الأولى ، التى سمحت له فيها بخوض معاركه .. ولو أنك شققت صدرى ، وقرأت المدوّن بقلبى ، لوجدت عاطفتى تتنازعانه بشدة ، فقد ربيت (فارس) ، كما لو كان ولدى ، وهكذا أشعر به فى أعماقى ، وأكاد أموت خوفًا وقلقًا ، كلما خرج فى مهمة ما ..
ثم زفر من أعمق أعماقه ، قبل أن يستطرد :
ـ ولكن والده (رحمه الله) ، أوصانى أن أعلّم (فارس) وأدرّبه ، حتى يحتل مكانته يومًا ، ويدافع عن (الأندلس) .. ولقد فعلت ما أوصانى به الأمير .. وها هو ذا (فارس) ، أعظم الفرسان ، فى آخر أيام (الأندلس) .

قال (مهاب) :
ـ آخر أيامها .. لماذا قلت هذا يا سيّدى ؟
اكتسى صوت الشيخ برنّة حزن وأسى ، وهو يجيب :
ـ لأنها الحقيقة يا ولدى .. شئنا أم أبينا .. صحيح أن (فارس) يحمل رمز الأمل فى المستقبل ، ولكنه مجرّد فارس وحيد ، فى عهد خلا من الفرسان .. لقد فقدنا (الأندلس) بضعفنا وتفككنا وتخاذلنا .. يا ولدى .. صدقنى .. كل ما يفعله (فارس) هو أن ينتزع لمحة من النصر ، من بين أنياب الهزيمة ، وكل ما أتمناه الآن هو أن يعود إلينا ..
وشرد ببصره لحظة ، قبل أن يضيف بصوت متهدّج :
ـ على قيد الحياة .
وأطبق عليهما صمت ثقيل ..

★ ★ ★

انقضّ (كريستوبال) على الجواد المقيّد ، بكل ما يعتمل فى صدره من غضب وسخط وثورة ، ولم يكن هناك ما يحول بين سيفه وصدر الجواد ، الذى أطلق صهيلًا محنقًا ، والحبال المحيطة بعنقه تكبّله ، وتمنعه من المناورة ..
ولكن فجأة ، انطلق سهم قوى ، لينغرس فى صدر (كريستوبال) ..

وفى موضع القلب تمامًا ..

وفى ذهول شديد ، اتسعت عينا (كريستوبال) ، وهو يحدِّق فى وجه قائد القشتاليين ، الذى رماه بالسهم ، فمطَّ القشتالى شفتيه ، وقال فى صرامة ، لم يحاول إخفاء ما بها منْ مقت وكراهية هذه المرة :

- قلت لك : إلا الجواد .

ترنَّح (كريستوبال) لحظات ، وحلَّ الألم محل الذهول فى عينيه ، ثم لم يلبث أن هوى جثة هامدة ، فهتف أحد القشتاليين :

- سيِّدى .. لقد قتلته !

أجابه قائده فى صرامة :

- بل قتله الفارس العربى .. ألم تر هذا ؟

قال الرجل فى دهشة :

- الفارس العربى .. ولكن يا سيِّدى ...

قاطعه قائده فى حزم :

- ألم تر ما حدث أيها الجندى ؟

ارتبك الجندى لحظات ، ثم فهم ما يعنيه قائده ، فخفض عينيه ، متمتمًا :

- بلى .. رأيت الفارس العربى يقتله يا سيِّدى .

ابتسم القشتالى ، وقال :

- عظيم .. والآن اذهب مع زميل لك ، واستعيدا جثة العربى .

أسرع الجندى يترجَّل عن جواده ، ثم اتجه مع زميله إلى حيث يرقد (فارس) ..

وهنا ثارت ثائرة (رفيق) ..

لقد استعاد غضبه وعصبيته ، وراح يصهل ، ويقاوم قيوده فى استماتة ، فتراجع القشتاليان فى قلق ، وهتف أحدهما :

- سيِّدى .. هذا الجواد ..

قاطعه قائده فى صرامة :

- الجواد مقيَّد .. لا مبرِّر لخوفك منه .

تردَّد الرجلان لحظة ، ثم اتجها فى حذر نحو (فارس) ، وانحنى أحدهما ليحمله ، ثم هتف فى دهشة :

- ربَّاه !

سأله قائده بسرعة :

- ماذا هناك ؟

جفل الرجل ، وهو يهتف :

- إنه حىّ .

انعقد حاجبا القشتالى فى دهشة ، وهو يقول :

- حىّ .. بعد كل هذا .

جفل الرجل ، وهو يهتف :

ـ إنه حيّ .

ثم لم يلبث أن لوّح بيده ، واستطرد :

ـ فليكن .. اقتله أوّلًا ، ثم احمله إلى هنا .

أطلق (رفيق) صهيلًا ثائرًا ، عندما انتزع الجندى سيفه ، ورفعه عاليًا ، ثم هوى به بكل قوته .. على عنق (فارس) ..

★ ★ ★



١٠ - الموت الأسود ..

كان السيف يهوى على عنق (فارس) ، عندما انطلق فجأة ذلك السهم ، الذى اخترق عنق الجندى من أحد جانبيه ، وبرز من الجانب الآخر ، فجحظت عينا الجندى فى ألم وهلع وذهول ، وسقط سيفه من قبضته ، قبل أن يهوى هو خلفه جثة هامدة ..

وصرخ قائد القشتاليين :

- هجوم .. تأهبوا يا رجال .

ولكن الأسهم انطلقت نحو الجنود ، وراحت تخترق منهم الصدور والقلوب والأعناق ، فى سرعة مخيفة ، جعلت القائد يتراجع مذعورًا ، وهو يهتف :

- إنهم يحاصروننا .. اهربوا يا رجال .

ولم يكد ينتهى من عبارته ، حتى انطلقت صرخة رهيبة ، من أعماق الدغل القريب ، ارتجف لها المكان كله ، وهوت لها قلوب القشتاليين بين أقدامهم ..

وفى اللحظة التالية ، برز (فهد) من الدغل ، على متن جواده الأسود ، وهو ينقضّ بيلطته المخيفة على القشتاليين ..

والعجيب أنهم كانوا أكثر من عشرة رجال ، ولكنهم تراجعوا فى هلع ، أمام ذلك المشهد ، وانطلقوا بخيولهم يعدون مبتعدين ، وكأنما تطاردهم شياطين العالم كله ..

وفى الظروف العادية ، ما كان (فهد) ليسمح لهم بالفرار ، وكان سيطاردهم ، حتى يدحرهم دحرًا ..

أما والموقف هكذا ، فقد وثب (فهد) إلى جوار (فارس) ، وانحنى يفحصه فى لهفة ولوعة ، قبل أن يطلق صرخة غاضبة أخرى ، تردّد صداها فى الدغل ، ثم جذب الأحبال المدلاة من عنق (رفيق) ، وحمل (فارس) ، ليضعه على متن (رفيق) ، ثم وثب هو على صهوة جواده ، وانطلق يعدو بالجوادين بأقصى سرعته ، وهو يطلق صرخات غاضبة ملتاعة ، تبدو كما لو أنها ثورة شياطين الجحيم كلهم ..

ولم يتوقّف (فهد) ، إلا بعد أن تجاوز حدود (قرطاجنة) ، فأوقف الجوادين إلى جوار شجرة ضخمة ، وأسرع يجمع بعض الأعشاب ، ثم أوقد نارًا ، وراح يسحق الأعشاب ويمزجها ، فى سرعة ومهارة ، ثم ألقاها فى بعض الماء ، وظلّ يغليه طويلًا ، قبل أن يلتفت إلى (فارس) ، وينتزع الرمح المكسور ، المغروس فى ظهره ..

وطوال ساعة كاملة ، راح (فهد) يضمد جراح (فارس) ، الذى غرق فى غيبوبة عميقة ، وسالت أنهار من العرق على وجهه ..

ولم يكد (فهد) ينتهى من عمله ، حتى فتح (فارس) عينيه ، وغمغم :

- (فهد) .. هل عدت يا أخى ؟!

تحسَّس (فهد) جبهة (فارس) فى حنان عجيب ، دون أن ينبس ببنت شفة ، فحاول (فارس) أن يبتسم ، وهو يتمتم :

- هكذا أنت دائمًا يا (فهد) .. حازم وحاسم وصموت .. كم تثير إعجابى بتفانيك هذا .

ابتسم (فهد) فى صمت ، ومسح العرق عن جبهة (فارس) ، الذى أسبل جفنيه ، وهمس فى تهالك :

- آه يا (فهد) .. إننى أشعر بضعف شديد .. شديد للغاية .

وضع (فهد) ذراعه اليسرى خلف عنق (فارس) ، ورفعه فى حنان ، ليسكب بين شفتيه بضع قطرات من دواء صنعه من مزيج الأعشاب ، وابتلع (فارس) تلك القطرات ، وهو يتمتم :

- ما هذا يا (فهد) ؟ إنه مُرّ المذاق للغاية .

وسعل مرة أو مرتين ، ثم هتف فجأة :

- يا إلهى !.. الهجوم يا (فهد) .

تطلَّع إليه (فهد) فى تساؤل ، فتابع مرتجفًا من فرط الحمى :

- القشتاليون يعدون لهجوم بحرى يا (فهد) .. أسطولهم غادر (قرطاجنة) ، ويتجه إلى سواحلنا .. أبلغ الشيخ يا (فهد) .. أبلغ مولاى (ابن الأحمر) .. أسرع يا (فهد) .. أسرع .

وكأنما استنفد هذا كل ما تبقَّى من طاقته ، فقد نطق عبارته الأخيرة ، وهوى فاقد الوعي ..

واعتدل (فهد) فى حزم ، وألقى نظرة طويلة على وجه (فارس) ، ثم حمله فى خفة ، ووضعه على ظهر (رفيق) ، ثم ربطه فوقه جيدًا ، ووثب على متن جواده ، وهتف :

- هيَّا .

وانطلق يعدو بكل قوته ، عائدًا إلى موطنه .. إلى مملكة (غرناطة) ..

★ ★ ★

التقط القبطان نفسًا عميقًا ، وهو يقول لـ (فرانشسكو) ، الذى يتطلع إلى البحر فى صمت :

ـ وصلنا إلى نقطة الهجوم ؟

التفت إليه (فرانشسكو) فى لهفة ، يسأله :

ـ أحقًا تقول ؟!

أومأ القبطان برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ نعم يا سنيور (فرانشسكو) .. (مالقة) أمامنا مباشرة ، وننتظر أوامرك فحسب ؛ لبدء الهجوم الشامل ..

لوّح (فرانشسكو) بكفه ، قائلًا :

ـ ليس الآن ..

ثم تطلّع إلى الشمال ، مستطردًا :

ـ لن نفسد الخطة كلها ، بعد أن وصلنا إلى هذه النقطة ، سننتظر حلول الظلام ، ثم ننقضّ على (مالقة) كالرمح القاتل ..

وبرقت عيناه ، وهو يضيف :

ـ وستنزف دماء العرب على رمال (مالقة) .. حتى الموت .

غمغم القبطان :

ـ أتعشم هذا .

التفت إليه (فرانشسكو) فى عنف ، قائلًا :

ـ ماذا تعنى بهذا ؟

قال القبطان :

ـ أعنى أن كل هذا سيصبح رائعا ، لو لم يكن العرب قد كشفوا الأمر كله .

لوّح (فرانشسكو) بكفه ، قائلًا :

ـ هذا مستحيل !

سأله القبطان فى لهجة استفزازية :

ـ ولماذا مستحيل ؟

أجابه (فرانشسكو) :

ـ لأن أحدًا لم يكن يعلم بأمر حملتنا هذه .. حتى أنت ، كنت تجهل وجهتنا .. أليس كذلك ؟

قال القبطان :

ـ كنت أجهل نقطة الهبوط فحسبُ ، ولكن كان من السهل أن أستنتج أننا نتجه إلى سواحل مملكة (غرناطة) .

هتف (فرانشسكو) :

ـ هذا لأنك تقود حملة بحرية ، ولكن كيف يعلم شخص آخر هذا ؟

عقد القبطان حاجبيه طويلًا ، قبل أن يقول :
ـ أنت محق فى هذا .. من العسير أن يعرف شخص آخر هذا الأمر .
ثم ابتسم فى ارتياع ، مستطردًا :
ـ عظيم .. هذا يعنى أنه لم يعد هناك ما يحول بين الرمح ، والانطلاق إلى هدفه المحتوم .
وأشار بيده ، مضيفًا فى شغف وجذل :
ـ إلى قلب مملكة (غرناطة) .

★ ★ ★

كانت الشمس تتوسط السماء ، عندما اعتدل (مهاب) بغتة ، وقال :
ـ جواد يقترب يا سيِّدى .
هبَّ الشيخ من مجلسه ، وهو يقول فى قلق :
ـ جواد ؟!.. أيمكن أن يكون ..
قفز (مهاب) يلتقط سيفه ، وهو يهتف :
ـ كلا .. إنه ليس (فارس) .. أستطيع تمييز وقع حوافر (رفيق) ، بين ألف جواد آخر .. هذا الذى يقترب جواد غريب ، يحمل فارسًا واحدًا ، وربما كان ..
هتف الشيخ فجأة :
ـ مولاى الملك .

انتفض (مهاب) فى حدة ، وهو يحدِّق فى وجه الملك ، الذى هبط عن صهوة جواده ، وهو يقول :
ـ وصلت رسالة أيها الوزير .
سأله الشيخ فى لهفة :
ـ من (فارس) ؟
أجابه الملك :
ـ بل من (فهد) .. لقد بلغ منطقة الحدود ، وتجاوزها ، وأرسل رسالة عاجلة ، فى ساق واحدة من الحمام الزاجل ، وأبلغنا بالحقيقة ..
ثم أمسك كتفى الشيخ ، مستطردًا :
ـ القشتاليون يستعدون لهجوم بحرى .
ارتفع حاجبا (مهاب) فى دهشة ، فى حين انعقد حاجبا الشيخ ، وهو يقول :
ـ هجوم بحرى .. متى ؟.. وأين ؟
أجابه الملك :
ـ لم يحدِّد هذا فى رسالته ، ولكن لو حسبنا المسافة البحرية ، بيننا وبين (قرطاجنة) ، أقرب ميناء إلينا ، مع بدء مناورات القشتاليين للتعمية ، لوجدنا أنهم سيشنون هجومهم الليلة أو غدًا على الأكثر .
قال الشيخ فى قلق :

- ولكن أين ؟.. هذا هو السؤال ؟

قال الملك فى انفعال :

- ليس أمامنا سوى أن نستنتج المكان ونقطة الهجوم ، ونبلغ بها رجالنا ، خلال ساعة على الأكثر ، وإلا فلن تصل الرسالة أبدًا .. أنت تعلم أن الحمام الزاجل لا يطير ليلًا (*) ..

اعتصر الشيخ ذهنه ، وهو يقول :

- لابد لنا إذن من استنتاج نقطة الهجوم ، وهى فى رأيى لن تتجاوز موقعين .. إما (المنكب) أو (مالقة) .

هتف الملك :

- هى (المنكب) إذن .

تقدم (مهاب) خطوة ، وهو يقول :

- مولاى .. اسمح لى .. لو أننى فى موضع القشتاليين ، لما اخترت (المنكب) موضعًا للهجوم .

التفت إليه الملك ، وقال فى انتباه واهتمام :

- لماذا ؟

قال (مهاب) :

- لأن هذا ما سنستنتجه بالتأكيد ، وليس من الذكاء أن يطرقوا الباب الذى نتوقعه ..

(*) حقيقة .

وصمت لحظة ، ثم أضاف :

- ثم إن نقاط سواحلنا لم تشهد سفنهم قط .

سأله (ابن الأحمر) فى اهتمام أكثر :

- وما تفسير هذا فى رأيك ؟

أجاب (مهاب) دون تردد :

- أنهم توغلوا فى عرض البحر ، وابتعدوا كثيرًا عن السواحل ، ولو أنهم أبحروا منذ يومين ، فهذا يعنى أنهم تجاوزوا (المنكب) بالفعل .

قال الملك فى حيرة :

- ولكننا لم نر أسطولهم .. أين ذهبوا إذن ؟

غرق (مهاب) لحظات فى تفكير عميق ، ثم رفع عينيه إلى الملك ، وقال :

- لو أننى فى موضعهم ، لاخترت الليل موعدًا للهجوم .. كنت سأنقض على ساحل (مالقة) باتجاه رأسى ، تحت جنح الليل ، ودون أن يرانى أحد .

قال الشيخ بابتسامة وقور :

- عظيم يا (مهاب) .. من الواضح أنك لم تفقد حاستك الحربية بعد .. مازلت قائدًا عظيمًا .

لوح الملك بكفه ، وهو يقول :

- بل أعظم قادة (الأندلس) ، بعد (طارق ابن زياد) (★) ، وما زلت أتمنى أن يقود فرساننا يومًا إلى النصر .

قال (مهاب) بسرعة :

- ستجدنى رهن إشارتك ، عندما تحين هذه الساعة يا مولاى .

وثب الملك يعتلى جواده ، وهو يقول :

- أتعشم هذا يا (مهاب) .. والآن سأنطلق على الفور إلى القصر ، حيث نرسل واحدة من رسائلنا الطائرة إلى (مالقة) .. لابد وأن يتصدّوا للهجوم المرتقب .

هم بالانطلاق بجواده ، عندما استوقفه (مهاب) ، قائلًا :

- مولاى .. معذرة ، ولكن .. ألم يذكر (فهد) فى خطابه شيئًا عن (فارس) ؟

بدا الأسى على وجه الملك ، وهو يقول :

(★) طارق بن زياد (٦٧٠ - ٧٢٠م) : فاتح (الأندلس) ، ينتمى إلى (البربر) ، وكان مولى (موسى بن نصير) ، أرسله على رأس جيش لفتح (الأندلس) ، فاستولى على الجبل ، الذى عرف باسمه فيما بعد ، وهزم (رذريق) ملك (القوط) عام (٧١١م) ، ونجح أحد رجاله فى الاستيلاء على (قرطبة) ، ولقد عاد مع (موسى) إلى دمشق عام (٧١٤م) ، ومات عام (٧٢٠م) .

- كان المفروض أن يكون (فارس) هو صاحب الرسالة يا (مهاب) ، وما دام (فهد) هو الذى أرسلها ، فهذا لا يعنى سوى ...

لم يتم عبارته ..

ولم يكن بحاجة لإتمامها ..

لقد بدا الجزء المتبقى منها واضحًا ، جليًا ، ومخيفًا .. مخيفًا إلى أقصى حد ..

★ ★ ★

أرخى الليل أستاره ، وتألقت النجوم فى السماء كمصابيح مزينة ، وهمس القبطان فى أذن (فرانشسكو) ، وكأنه يخشى أن يفسد روعة الطبيعية من حوله :

- إننا نقترب حثيثًا من ساحل (مالقة) .

انتشى (فرانشسكو) ، وهو يقول فى ظفر :

- عظيم .. حانت اللحظة الموعودة .

ابتسم القبطان ، وهو يقول :

- هل تعلم أن لدى أوامر ملكية بشأنك ؟

التفت إليه (فرانشسكو) فى قلق ، وقال :

- أية أوامر هذه ؟

ربّت القبطان على كتفه ، قائلًا :

ـ إنه مرسوم ملكى ، أمرنى (فرناندو) بتسليمه لك ، فور هبوط جنودنا على الساحل العربى .

ردد (فرانشسكو) بأنفاس لاهثة :

ـ مرسوم ملكى ؟!

أومأ القبطان برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ نعم .. مرسوم يمنحك لقب (دون) ..

انتفضت كل خلية فى جسد (فرانشسكو) بالنشوة ، فى حين عاد القبطان يربت على كتفه ، قائلًا :

ـ أبشر يا رجل ، ما هى إلا ساعة أو أقل ، حتى نخاطبك بلقب دون (فرانشسكو) .

التقط (فرانشسكو) نفسًا عميقًا من الهواء البارد ، وكأنما يخمد النيران المستعرة فى أعماقه ، وراح اللقب يتردد فى أذنيه ، والسفن تقترب رويدًا رويدًا من ساحل (مالقة) ، ثم قال القبطان :

ـ لقد أصبحنا على مسيرة عشر دقائق من الساحل .. ستقترب سفينة استطلاع ، ثم تلحق بها باقى السفن .

أطل (فرانشسكو) ، على الشاطىء المظلم الساكن ، وقال :

ـ ولم لا نتقدم كلنا دفعة واحدة ؟.. كل شىء يبدو هادئًا .

أجابه القبطان فى حزم :

ـ إنها أصول الحرب البحرية .. اترك لى هذا .. إنها لعبتى .

وبإشارة من يده ، توقفت كل سفن الأسطول ، فيما عدا سفينة واحدة ، اقتربت من الشاطىء أكثر وأكثر ، حتى أصبحت على بعد أمتار قليلة منه ، ثم أعطت إشارة خاصة ، تنهد لها القبطان فى ارتياح ، وقال :

ـ كل شىء على ما يرام .. يمكننا أن نتقدم الآن .

وأشار إلى السفن الأخرى ، فتقدمت كلها نحو الساحل ، وراح قلب (فرانشسكو) يخفق فى عنف ، وهو يتخيل المستقبل المشرق ، الذى ينتظره بعد هذا النصر .. واللقب الرنان الذى سيحمله ..

دون (فرانشسكو) ..

كم بات يحلم بحمل لقب من ألقاب النبلاء ، الذين يحسدهم منذ طفولته ..

كم تمنى أن يصبح يومًا أحدهم ..

كان يغرق مع أفكاره فى بحر عميق من الأحلام والأمنيات والخيال ..

وفجأة ، اشتعلت الدنيا من حوله ..

من آلاف النقاط على الشاطئ ، اشتعلت بؤر نارية متعددة ، وهتف القبطان فى هلع :

ـ فخ .. إنه فخ .

اتسعت عينا (فرانشسكو) عن آخرهما ، مع هتاف القبطان ، وحدّق فى كرات اللهب التى تملأ الشاطئ بذهول ، وقبل أن يدرك ماهيتها ، رآها تنطلق نحو كل السفن فى آن واحد ..

وعندئذ فقط ، أدرك طبيعة تلك النيران ..

آلاف من الأسهم ذات الرءوس النارية ، أضاءت السماء ، وهى تنطلق نحو السفن ، وتنغرس فى أشرعتها وأسوارها وحتى فى جنودها ..

وبكل الذعر فى أعماقه ، صرخ القبطان :

ـ انسحبوا .. تراجعوا .

وراحت السفن كلها تتراجع فى سرعة ، والنيران تشتعل فى أجسامها ، فيما عدا سفينة الاستطلاع ، التى التهمتها النيران عن آخرها ، وغادرها جنودها فى ذعر وهلع ، ليأسرهم جنود الأندلس البواسل ..

وفى انهيار ، هتف (فرانشسكو) :

ـ مستحيل !.. كيف علموا ؟.. كيف فعلوا هذا ؟

صاح القبطان فى غضب :

ـ هل تسألنى أنا ؟!.. أنت رجل حقير يا (فرانشسكو) .. وغد مغرور سخيف .. لو أنك شاركتنا خطتك وأفكارك ، لكنا قد تعاونا لإضفاء السرية الكاملة على الخطة ، ولكنك

تصوّرت نفسك عبقرية منفردة ، تستطيع أن تهزم كل العرب وحدك .. أنت المسئول عن هذه الهزيمة .. هل تفهم ؟.. أنت المسئول عن كل هذا .

قال (فرانشسكو) فى انهيار :

ـ أنا أكبر الخاسرين يا رجل .. ألا تدرك ما أصابنى .. إننى لن أحصل على اللقب قط .. لقد فقدت فرصتى فى الانضمام لعالم النبلاء ..

قال القبطان فى صرامة :

ـ وماذا عن عالم الأحياء ؟

شحب وجه (فرانشسكو) ، وهو يرفع عينيه إلى القبطان ، الذى استطرد فى مقت ، وهو يستلّ سيفه :

ـ لقد أخبرتك أن لدى بعض الأوامر الملكية بشأنك ، ولكننى لم أخبرك بكل التفاصيل ، لقد أمرنى (فرناندو) بمنحك لقب (دون) ، ولو نجحت الحملة ، أما لو فشلت ..

فهم (فرانشسكو) ما يقصده القبطان ، فصرخ :

ـ لا .. لا .. الرحمة .

ولكن سيف القبطان لم يكن يعرف الرحمة ..

لقد هوى على عنقه فى قوة ، ونقله فى لحظة واحدة ، من عالم الأحياء ، إلى عالم الموتى ..

فهم (فرانشيسكو) ما يقصده القبطان ، فصرخ :

ـ لا .. لا .. الرحمة .

وفى حنق ، أعاد القبطان سيفه الملوّث بالدماء إلى غمده ، وهو يهتف :

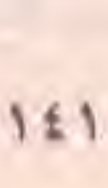
ـ واصلوا الانسحاب .. سنعود إلى (قرطاجنة) .. لقد انتهت حملة الرمح ..

انتهت بالفشل ..

وعاد الأسطول أدراجه ، وقد انكسر رمحه .. انكسر تمامًا .

★ ★ ★





١١ ـ الختام ..

تسللت رائحة عطرة إلى أنف (فارس) ، وهو يستعيد وعيه فى بطء ، ففتح عينيه فى صعوبة ، وتطلّع إلى الوجه الساحر المطلّ عليه ، قبل أن يهتف فى دهشة ، وهو يهبّ من فراشه الوثير :

ـ الأميرة (جميلة) ؟!

انحنت الأميرة نحوه ، ودفعته فى رفق ، ليعود إلى رقاده ، وهى تقول فى حنان :

ـ نعم .. هو أنا يا (فارس) .. عد إلى نومك .. الطبيب قال : إنك تحتاج إلى ثلاثة أيام من الراحة .

قال معترضًا :

ـ وهل سأظل هكذا لثلاثة أيام ؟

ابتسمت وهى تقول :

ـ هذا يومك الثالث .

هتف فى دهشة :

ـ يومى الثالث .. أتعنين أننى ..

قاطعته فى رقة :

ـ نعم .. أنت فاقد الوعى منذ يومين .

تملكته الدهشة لحظات ، ثم سأل :

ـ لماذا أنا هنا ؟..

أجابته بابتسامة ناعمة .

ـ كنت مصابًا بشدة ، وتحتاج إلى رعاية طبية خاصة ، لذا فقد رأى زميلك الزنجى العملاق أن يأتى بك إلى هنا ..

هتف فى جزع :

ـ (فهد) .. آه .. لقد تذكرت .. ماذا فعلتم مع القشتاليين ؟

أتاه صوت الملك يقول :

ـ لقد دحرنا هجومهم البحرى تمامًا .

رفع عينيه إلى مصدر الصوت ، وقال :

ـ مولاى .. معذرة .. لن يمكننى النهوض لتحيتك .

ابتسم الملك ، وهو يقول :

ـ لا عليك يا ولدى .. لقد فعلت ما هو أعظم وأجلّ .. لقد أنقذت (الأندلس) كلها .

تساءل (فارس) :

ـ كيف ؟.. كيف علمتم ؟

أجابه الملك :

ـ لقد أخبرت (فهد) بالأمر ، قبل أن تفقد وعيك ، فحملك على جوادك ، وراح يعدو بك حتى بلغ الحدود ،

ولم يكد يعبرها حتى اتجه إلى أوَّل معسكر لجيوشنا هناك ، وأرسل رسالة بوساطة الحمام الزاجل ، يبلغنا فيها ما أخبرته إياه .

ثم مال نحوه ، واستطرد بابتسامة كبيرة :

- انت بطل يا ولدى .. بطل بحق .

تنهَّد (فارس) فى ارتياح ، وقال :

- حمدًا لله .. إذن فقد نجحت .

قالت (جميلة) ، وقلبها يخفق بشدة :

- أنت تنجح دائمًا يا (فارس) ، و ...

وبترت عبارتها ، لتقول فى دهشة :

- (فارس) ؟!

هذا لأن فارسها كان قد غرق فجأة فى سبات عميق ، وراح يحلم بذلك اليوم ، الذى تنتصر فيه بلاده .. بلاد (الأندلس) .

★ ★ ★

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع : ٤٦٨٤
٩٧٧ / ٢٦٦ / ٠٠٣ / ٢



٦

فارس الأندلس

من البطـــولات العربيـــة
فى أحرج فترة للعرب فى أسبانيا

الرمح المكسور

- *ما الخطة الجديدة ، التى وضعها القشتاليون ، لغزو مملكة (غرناطة) ؟*
- *من هو (فرانشسكو) ، ولماذا جمع الأسطول فى (قرطاجنة) ؟*
- *ترى من يربح تلك الجولة ، ومن يحمل شعار (الرمح المكسور) ؟*
- *اقرا التفاصيل المثيرة ، وعش عبق التاريخ ، مع (فارس الأندلس) .*

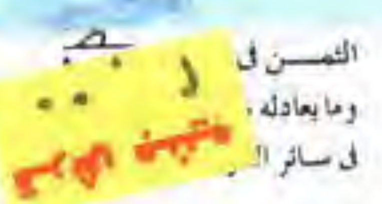
الرواية القادمة : نداء غرناطة

المؤلف



د. نبيل فاروق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع



الثمـــن فى
وما يعادله
فى سائر ال